Twitter: @alqareah
20.1.2016

أليف كروتييه

قصر الدموع

رواية

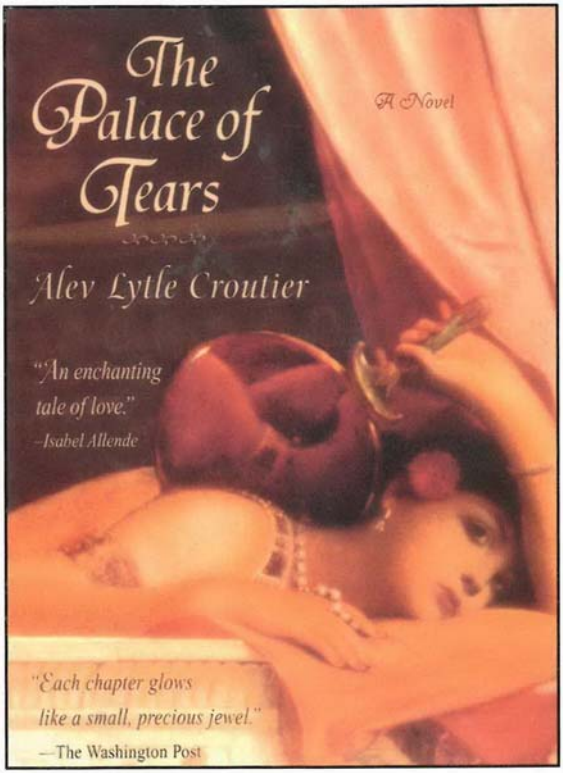

ترجمة: أميمة البهلول

أليف كروتييه

قصر الدموع

رواية

ترجمة: أميمة البهلول

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

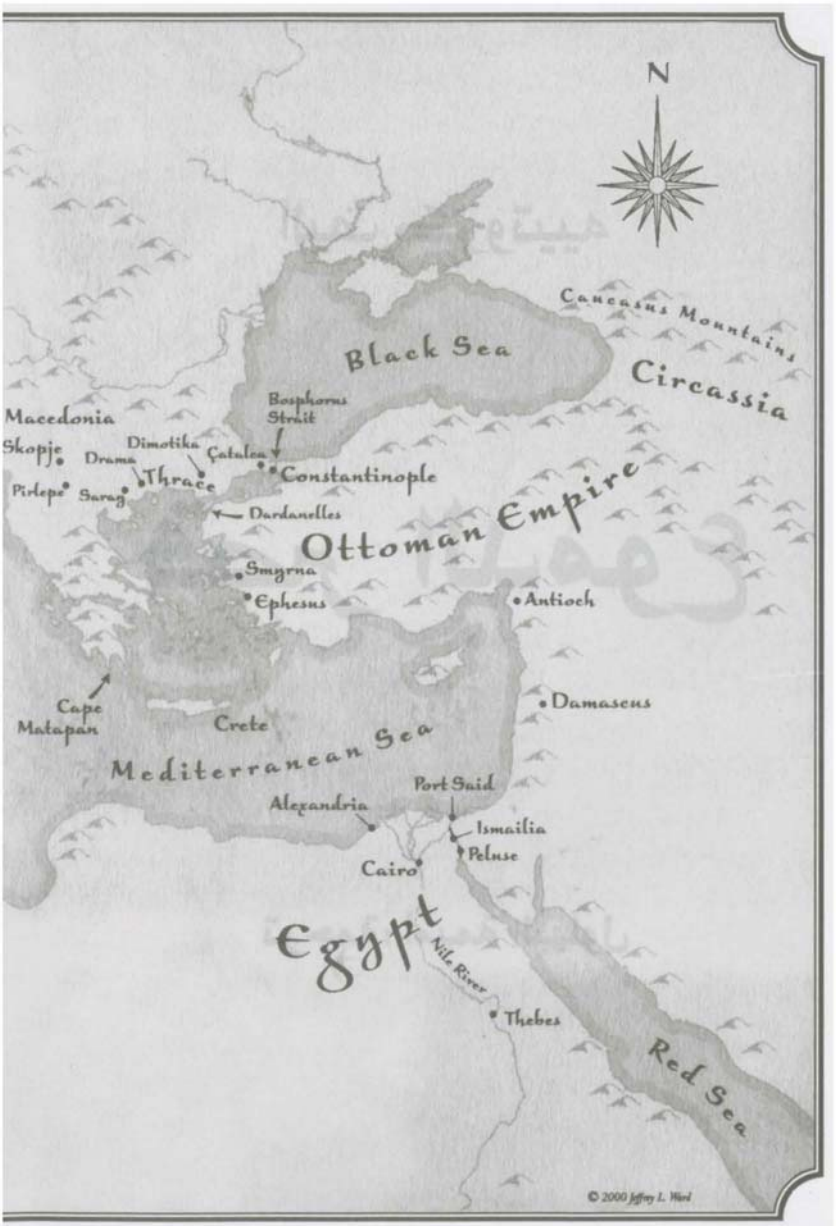

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

هذا العمل من وحي الخيال، ولا يشمل ذلك الشخصيات والأحداث فقط، بل أيضاً الوقائع التاريخية التي ضحينا بها لسرد هذه القصة.

Twitter: @alqareah

الجزء الأول

لا يلتقي العشاق أخيراً في مكانٍ ما
بل يوجد أحدهما على الدوام في وجدان الآخر
«مثل روماني»

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

أرادت له عائلته أن يعيش في الريف ويزرع كروم العنب كما فعل جميع أسلافه لمدة عشرين جيلاً، لكن تطلعات كازيمير دو شاتونوف كانت أكثر رُقيّاً.

كان كازيمير حالماً وأراد أن يجد قَدَره قبل أن يجده هذا الأخير.

حدث ذلك في عام 1868 حينما كانت أوروبا تعيش حالة من الجنون المؤقت، باحثة عن نقيضها الروحي في بلاد المشرق وبلاد المغرب(*) المنعزلين. فقد استحوذت فكرة الاستشراق على كل شيء: من الكتب الخيالية والموضة إلى أقمشة دولاكِرْوَا.

لكن الأمر الذي أثار اهتمام الجميع هو اندماج مياه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي في السويس بعد سنوات من العمل الشاق، مما يشكل اتحاداً رمزياً بين الشرق والغرب من شأنه أن ينشِّط التجارة ويشجع الإبداع.

كان كازيمير في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان قد نجح لتوّه في تحويل العنب إلى ذهب(**).

(*) المقصود منطقتي المشرق العربي والمغرب العربي وما يحيط بهما.

(**) يقصد به النبيذ الأبيض. م.

Twitter: @alqareah

قضى كازيمير طفولته الرتيبة في كروم العنب، أما فترة المراهقة فأمضاها في قبو الخمور. سُمِّيت العزبة بمستودع الذكريات، أما البلدة فكانت تدعى شاتونوف دو باب.

كان اسم زوجته اسبرانس أما أولاده فكانوا يدعون أندريه وأنطوان وألفونس.

عرف كازيمير كل شارع وكل بيت وكل شخص في شاتونوف دو باب، كما جرّب جميع الرذائل التي سادت في المقاطعة. «أنا ضجر، ضجر حتى الموت ولدرجة لم أعهدها من قبل»، أَسَرَّ كازيمير لصديق له.

عَزمَ كازيمير على المضي إلى باريس لتسويق الخمر ولاكتشاف الانحرافات الخُلُقية الفريدة من نوعها في المدينة.

وقد مكَّنته سرعة استيعابه للأشياء وأخلاقيات رجل الريف المتسم بالبساطة من الدخول إلى أفضل نوادي الرجال وصالونات السيدات. واستطاع بسهولة التمييز بين الفروقات الدقيقة التي لا تكاد تُدرك فيما يتعلق بالخياطة، كما صقلَ لهجته في مدّة قياسية، واستطاع تنمية فصاحته.

حظيَ كازيمير بعشيقة مثيرة تعيش فوق القناطر، أعلى القصر الملكي. كانت تتميز بشعر أحمر وشفتين صغيرتين وشهوانيتين، (وكان الرجال المهمون يتهامسون فيما بينهم عن ميزتها «الأخرى» التي عوَّضت بعذوبة عن الخلل الذي يعتريهم).

ومن خلال نافذتها، كان كازيمير يستطيع رؤية برج متحف اللوفر، كما تمكّن من جس نبض التجارة من خلال التنزه في شارع ريفولي. وكان يقضي الساعات في المكتبة الوطنية ينسخ الجرائد

Twitter: @alqareah

والكتب غير المألوفة متقصياً الأحداث التي وقعت في البلاد خلال فترة طفولته. وأمكنه أيضاً أن يغرق في المجلدات المكتوبة وفي الكتابات عن القارات المكتشفة والآلات المخترعة.

تمتع كازيمير بتذوق الرفاهية وبكل ضرب جديد من الفنون. ففي المساء اعتاد الذهاب إلى المسرح والأوبرا، ومارس المثاقفة وإطلاق المسدسات في مصنع الذخيرة ثلاث مرات في الأسبوع. أما في أيام الثلاثاء، فكان يلعب البيزيك(*) مع رجال الأعمال الأجانب في ضاحية سانت أونُورِيْه.

وفي الساعة الرابعة بعد ظهيرة كل ثلاثاء، كان المتسولون يجتمعون خارج النادي ويمدون أيديهم باتجاهه ليوزع عليهم حصيلة اليوم.

(*) البيزيك: ضرب من لعب الورق

Twitter: @alqareah

2

في ذلك اليوم القَدَري، كان كازيمير في طريق العودة إلى عشيقته بعد لعبة بيزيك عندما وجد نفسه عالقاً بين مجموعة من المشاهدين الذين يتابعون حاشية مركبة فاخرة تدخل إلى باحة قصر تويلري. ترجل من المركبة رجال يرتدون سراويل قصيرة لركوب الخيل وجوارب حريرية. مدوا أيديهم باتجاه السيدات لمساعدتهن على النزول. ارتدت تلك السيدات القرينولات(*) المنتفخة وكانت صدروهن شبه عارية باستثناء تلك الأجزاء المخبّأة تحت المجوهرات والفراء. تمشّوا جمعيهم باتجاه بافيليون دؤلورلوج حيث وقف بانتباه حرس سويسريون بخوذاتهم الأرجوانية والزرقاء، ثم اختفى الموكب عن الأنظار.

بدا العرض لكازيمير دو شاتونوف وكأنه مشهد من المسرح الكبير حيث تفصل بين المؤدين والحضور ستارة سميكة، ومع ذلك شفافة. أثار ذلك شعوراً غريباً لديه كما لو أن الحقائق المنفصلة على وشك الاندماج، وكان شعوره هذا كالهاجس. وتساءل كازيمير فيما لو كان بإمكانه تجاوز الخط المحظور.

(*) القرينول: تنورة مثبتة بأسلاك لكي تحتفظ بشكلها المنتفخ.

Twitter: @alqareah

توقف في شارع ريفولي 220 في متجر أ. فيب، تاجر النبيذ والبراندي الشهير، وعقدا صفقة مربحة لكليهما بعد أن قدم كازيمير السجائر والهدايا من شاتونوف دو باب.

كم أصبحت الأمور سهلة، فلم يتطلب الأمر أكثر من بعض الدخان الجيد وكأساً من النبيذ. خرج من متجر أ. فيب بعدها وهو يشعر بامتنانٍ غامر لمعجزة الوجود.

حدث ذلك في فصل الخريف، حيث سقطت أوراق الأشجار الذهبية والفضية على أرض المتنزه لتغمر الركبتين كالعنب في وقت القطاف ولكنها أكثر خفة.

شعر كازيمير دو شاتونوف وكأنه أسعد رجل في العالم وهو يتنزه بغير هدى خلال متاهات الشوارع وزواياها والساحات والطرق المختصرة في هذه المدينة ذات المشاهد المصطنعة والتناسق المثالي.

دار حول البلاس فاندوم ومشى بسرعة نزولاً باتجاه سانت أونوريه متجاوزاً مسرح الكوميديا الفرنسية ثم سلك طريقاً مختصراً للمرة الأخيرة في مونتبنسييه غالييري خلال الأزقة المظلمة إلى الحدائق حيث كان الأطفال يلعبون وهم يدورون ممسكين بأيدي بعضهم البعض.

كانت تلمع، خلال الأقواس، أضواء ذهبية صافية تحت قناطر القصر الملكي المجوفة. توقف كازيمير ليأتي ببعض السعوط ثم دار حول الساحة وتوقف ثانية لينظر خلال نوافذ متاجر الميداليات وابتاع جنوداً من التنك الزائف لأندريه وأنطوان وألفونس وصداراً(*) بورودٍ حريرية لاسبرانس، بحسب الموضة الشائعة في باريس في ذلك الفصل. كان

(*) صدار: قميص تغطي به المرأة جزءها الأعلى وبخاصة صدرها.

Twitter: @alqareah

من النوع الذي يرفع الصدر عالياً حتى يكاد يصل إلى الرقبة. لكن كازيمير كان واثقاً بأن تواضعها لن يسمح لها بإشباع رغبتها في ارتدائه حتى في السر.

أثارت اضطرابه نافذة أحد المتاجر التي لم تعرض شيئاً سوى ستارة سوداء كتب عليها كلمة واحدة: أورينتيلا (شرقيات).

كان وقع ذلك على الأذن يوحي بالشهوانية لدرجة أن كازيمير اضطرب وقد تملك الاهتياج قلبه. ثم دخل المتجر بعد أن قلَّبَ كلمة أورينتيلا في فمه كما لو كانت تينة قطفها للتو.

وفي هذا المكان المعتم، امتزجت الرائحة اللاذعة للجلد غير المدبوغ بعطر الورود. وتكومت في المتجر السلع المتنوعة الرخيصة القادمة من الشرق بشكل فوضوي: نارجيلة وعمامة وخنجر ودف صغير، وكان عليه أن يختار بينها بعين الخبير.

ووجد في ملحقٍ صغيرٍ مجموعة من صور شخصية منمنمة وهي نِسخٌ مطابقة لوجوه أشخاص حقيقيين بتفاصيلها المعقدة. وكانت لهذه الوجوه، رغم حجمها الصغير، تعابير مرسومة على كل منها تلمِّح لحكايات يرغب أصحابها بسردها.

ومن بين كل تلك اللوحات، استطاع وجه امرأة شابة تخديره. فقد تشابكت عيناهما معاً كما لو كانت عيناها تتابع عينيه بغض النظر عن الزاوية التي ينظر كازيمير منها. راوده شعور بأن الوجه في اللوحة ينبض بالحياة.

كانت المرأة ترتدي قفطاناً أخضرَ ذا أكمام متهدلة ومطرزة بورود الخزامى الذهبية، وكان من الصعب تخمين لون شعرها لأنه مغطى

Twitter: @alqareah

بغطاء مطرز بالجواهر، وكانت بشرتها كالعاج. أما عيناها فإحداهما زرقاء والأخرى صفراء.

كان وجهها مألوفاً إليه إلى حدٍّ يفوق التصور، ولكن ذاكرته خانته ولم يستطع تحديد هويتها. وقد نُقِشَتْ كلمة «الدمية» على حافة اللوحة بحروف مُذهبة.

«من تكون هذه المرأة؟»، سأل كازيمير.

لم يستطع صاحب المتجر الإجابة على ذلك فقد ابتاعها من رسام شاب قصير جداً يدعى نوماد سافر إلى الشرق.

«أين يمكنني أن أجده؟»، سأل كازيمير دو شاتونوف؛ فبلاد الشرق واسعة وتضم جميع أراضي الإسلام بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط.

هز الرجل كتفيه بلا مبالاة: «إنه رسام، تارة تراه هنا وتارة أخرى لا تجده. لا أملك وسيلة لمعرفة ذلك، ولكن بإمكانك ملاحقة البائعين في مونمارتر».

اشترى كازيمير دو شاتونوف اللوحة بمبلغ كبير. وبدا الإطار المخملي الأخضر المطرز بورود الخزامى الذهبية وكأنه حياة خفية ينضح بها القدر.

Twitter: @alqareah

3

دخلت المرأة في اللوحة المنمنمة أحلام كازيمير في تلك الليلة.

كان يتجول في مدينة ذات قبب ومآذن نحيلة يتحدث فيها الجميع بلغة غير مفهومة. انتشرت الهمسات كشجر الخرنوب خلال متاهات الأزقة، وجلست المرأة في الباحة وهي تنشج، فملأت دموعها حوضَ نبع فارغ. أحاطت بها أشجار الفواكه الغريبة والزهور والطيور ولكنها بدت كما لو كانت داخل شيء يشبه السجن. وكانت لكنتها منكّهة كالقرفة، مثل نكهة الجارية، ولكن ملامحها كانت تشع بأناقة كالأميرة. أحبك. أحبك. خرجت هذه الكلمة من بين شفتيها كحلقات الدخان وهي تطفو بعيداً في الفراغ. كان قد سمع هذا الصوت سابقاً في أحلامه. التقت عيناهما فتملكه اشتياق كبير ليكون بقربها ثم حاول لمسها.

قفز فجأة ثم جلس على السرير محدقاً بالجدار الذي أناره ضوء القمر. سمع صوت خطوات مختلسة تتسكع على سقف الغرفة وصراخاً. كان ذلك مواء قطة مهتاجة. لكنه لم يستطع استرداد صورة الفتاة عندما استعاد وعيه.

لم يتمكن من العودة إلى الحلم فأمضى الليل بطوله يمارس الجنس مع عشيقته بخفة انبعثت من كيانه بأسره. شعر لأول مرة في حياته بأن

Twitter: @alqareah

الحب ليس مُكوناً من غرائز جسدية عاصفة، ولا هو بتموجات موسيقية، بل هو استسلام للجزرِ والمدِّ في أرواح المحبين المشتركة. تخليا معاً عن جسديهما وحلّقا على البساط السحري خلال الغيوم فوق أشجار القصر الملكي المشذبة (كما وصفت ذلك لوحة «الحلم» لبوفيس دو شافان بعد ذلك بعدة سنوات). ثم صبغت الشمس المشرقة جسديهما. كانت الشمس كبقعة من الزعفران الأحمر وقلّمت الأشجار لتغدو متطابقة ولتمتد إلى ما لا نهاية كبحر من الأوراق المزركشة.

ترك كازيمير عشيقته في الفراش وهي ماتزال في حالة من الاشتياق وقد أحسّت ببريق مقدس لم تجرّبه من قبل. كما شعرت بتوقٍ شديد للتمسك بهذا الشعور وبالرجل الذي رافقها خلال هذه النشوة الخيالية. لكنها لم تكن لتغفر له هجرانه المفاجئ لها.

Twitter: @alqareah

4

انطلق كازيمير بقوة تفوق طاقة البشر صاعداً إلى مونمارتر، موئل الفن التوّاق دوماً للتجديد، وسأل عن رسامٍ ذهب إلى الشرق.

«لكن هناك العديد منهم في الوقت الحالي يا سيدي فهذه هي الموضة الآن. فكيف يستطيع المرء الهروب من الأدبيات البورجوازية ومن الواقعية المبتذلة؟ كيف يستطيع تحرير نفسه من الاضطهاد الجنسي للزواج الأحادي؟».

«تستطيع أن تجرب مرسم السيد جيروم في الأسفل قرب سانت جورج»، اقترح أحدهم.

ومن خلال شارع تظاهر فيه العامة، شق كازيمير طريقه إلى مرسمِ أكثر الرسامين الشرقيين شهرة. كان النجارون يبنون في الداخل سطحَ منزل امتلأ بالنوافير وأشجار النخيل. اجتمع طلاب الرسم حول إحدى الموديلات وجعلوها تستلقي في وضعية جارية مضطجعة. كانت ترتدي قفطاناً مطرزاً بورد الخزامى، يشبه ذاك الذي ارتدته المرأة في اللوحة. وكان يبدو وكأنه دخل إلى مشهد من ألف ليلة وليلة.

سأل من أين أتوا بالثوب، ولكن لم يعرف أيٌّ منهم الجواب.

Twitter: @alqareah

توسل إلى الموديل أن تبيعه القفطان حتى إنه بدأ بنزعه عنها رغم علمه بحماقة تصرفه هذا، إلّا أنه لم يستطع منع نفسه. بكت الموديل وألقى به التلاميذ إلى الشارع.

وعلى امتداد الحارات الرائعة المفتقدة في الوقت نفسه للشروط الصحية، سأل كازيمير جميع البائعين ومُلّاك الأراضي عن رسام يدعى نوماد. لم يعرف أحد عنه شيئاً. لكن أحد العميان من جامعي النفايات الذي يرتدي قبعة سُحِقت ذروتها مدَّ نفسه باتجاه كازيمير وقال: «أوه، ذلك القزم، لقد عاد ثانية إلى الشرق».

انطلق كازيمير دو شاتونوف إلى الشرق في ذلك اليوم.

Twitter: @alqareah

5

يقوم الشرق حيث تبزغ الشمس.

بدأ كازيمير دو شاتونوف رحلته الطويلة من باريس إلى مارسيليا، بوابة فرنسا إلى الشرق. ركب بداية مركبة السفر ومن ثم السفينة البخارية من شالون إلى ليون ليلحق بعدها بزورق الرُّون الذي ينتهي بفالنس حيث أخّره ضباب سميك وشبحي. ثم ركب عربة البريد مسافراً على جناح السرعة إلى آفينيون كما كان يفعل على الدوام عند عودته من باريس إلى شاتونوف دو باب.

لكنه لم يتوقف هذه المرة في مستودع الذكريات لرؤية عائلته. فقد تملكته رغبة شديدة مدفوعة بهدف وحيد؛ لكن أفراد عائلته لم يكونوا جزءاً من هذا الهدف، فهم سيسرون بتلقي الهدايا، ولن يعلموا بغيابه وسوف ينسونه في نهاية المطاف.

ثم أخذ القطار من آفينيون إلى مارسيليا حيث ركب سفينة نقل تدعى «حورية البحر» ذات قوة تعادل مئتي حصان وتتهادى في البحر كالسكارى.

وقف كازيمير لوقت طويل وقد ارتدى معطفاً طويلاً من الفراء «كتشايلد هارولد» متكئاً على السياج، يُحدق في شاطئ البروفانس

Twitter: @alqareah

وهو يختفي في الضباب تدريجياً من أمام ناظريه. كان كازيمير ضائعاً كلياً في أحلام يقظته عن المرأة الشابة في اللوحة المنمنمة ذات العين الزرقاء والعين الصفراء.

Twitter: @alqareah

6

بعد اثني عشر يوماً من الرياح العاصفة والأمواج العاتية وتأرجح السفينة صعوداً ونزولاً، جلس كازيمير دوشاتونوف في مقدمة السفينة ومنظاره بيده ليراقب الشواطئ المصرية. كانت أولى انطباعاته عن الشرق هي ضوء واهن يرتد كالزئبق فوق المياه.

نزل من على متن «حورية البحر» في مدينة الإسكندرية وعيناه مفتوحتان على مداهما، وقد راحتا تتفحصان الأعداد الكبيرة من الأشخاص الملونين.

ومن خلال هذه السلسلة المتعاقبة من البشر، بحث كازيمير عن رسّام يدعى نوماد وهو يشق طريقه خلال الأسواق الشرقية وحشود الحشرات والكلاب النابحة والأشخاص أنصاف العراة.

لم يحالفه الحظ رغم ذلك.

غادر كازيمير إلى القاهرة على متن قارب إنكليزي ينزلق من أعلى النيل باتجاه طِيْبَةَ. تناول البيض الطازج في الفطور وحلوى الخوخ في عيد الميلاد. كما اصطاد التماسيح في الصباح وشرب الشاي في فترة بعد الظهر.

وبينما انحدر باتجاه الشلال الثاني، تذكر هتاف فلوبير عندما انزلق بالطريقة نفسها: «أوريكا، وجدتها، إنها تدعى ايما بوفاري».

Twitter: @alqareah

تمنى هو أيضاً أن يهبط عليه الوحي تابعت عيناه النجم الشمالي.

امتطى جَملاً وسار خلال ضريح عظيم في مدينة مهدمة حيث انبثق في كل منعطف نصبٌ تذكاري يحدق فيه من خلال الضريح. وجه مبعثر وأعمدة محطمة وجدران منهارة وقطع من الغرانيت والرخام شقت طريقها من خلال الأرض الرخوة كما لو كانت تصارع من أجل النشور.

لا يبقى شيء خلاف ذلك حول خراب
ذلك الدمار الواسع اللامحدود والأجرد
وتنتشر الرمال المنعزلة والمنبسطة في البعيد

سار كازيمير فوق الرمال الحارّة تحت الشمس الملتهبة. رأى إلى جانبه هوة منعرجة عمل فيها بجهد كبير مئات من العمال المصريين شبه العراة ليُخرجوا إلى النور شاهد ضريح فرعون دفن في التراب منذ زمن طويل. وفي الجانب الآخر، كشفت مجموعة أخرى عن معبدٍ كاملٍ لم يُمَس كما تركه المصريون القدماء.

وفي مكانٍ أكثر ارتفاعاً، علقَ كازيمير في طوفانٍ جارٍ. شاهد سيلاً ذا فقاعة صفراء مندفعاً نحو الأسفل باتجاه مجرى النهر وقد جرف في طريقه قِطعاً من تماثيل محطمة وأشجارٍ وأغصان. رأى دوامة تتسع حول كوخ خشبي لتحمله فيما بعد بقوة كبيرة خلال منحدر النهر.

Twitter: @alqareah

وفجأة، سُمِعَ صوتٌ قويٌ كالرعد وتحطم الكوخ منهاراً باتجاه المياه جارفاً معه رجلاً يطلق الصرخات.

وعندما أخرج كازيمير جسد الرجل من التراب، كان هذا الأخير لا يزال ممسكاً بإحكام ببضع لوحاتٍ طمس الماء الملوث بالطين ملامحها. بذل كازيمير قصارى جهده لإعادة الحياة إلى الرجل ولكن بلا جدوى.

أخبروه بأن الرجل يدعى نوماد، وهو قزم يرسم لوحات جميلة منمنمة وكان قد رسم كلَّ مَنْ في المدينة.

طلب كازيمير من المنقذين استرداد شيء، أي شيء بقي في كوخ نوماد، لكن لم يكن هناك سوى الطين.

«أن يكون المرء قريباً لدرجة ملامسة الشيء الذي يبحث عنه ويخطئه رغم ذلك!»

تابع كازيمير مسيرهُ باتجاه دمَشق وهو يبحث عن العزاء لبعض الوقت في إحساس الذروة الذي تخلقه المخدرات. ومع ذلك كان هناك شيء ما يدعوه بإلحاح.

وفي أحد الأيام أثناء رحلته، ظهرت من العدم مجموعة من الأشخاص وهي تعدو مُلوِّحة برماحها وتصرخ بوحشية. أَبْقَوا على حياة كازيمير ولكنهم سلبوه كل ما يملك باستثناء صورة الفتاة التي كان قد أخفاها في الرمال.

جُرِّدَ كازيمير من كل شيء، ولم يبقَ له سوى السراب تلو السراب الذي يظهر فيه وجه الفتاة وصوتها الصافي الذي يرن متواتراً كأنه أغنية: أحبك، أحبك. هامَ على وجهه. وتردد صدى ندائها الحزين، العذب والعاشق بنشوة وبدا وكأنه يُدَوِّي في الشرق برمته.

Twitter: @alqareah

شق طريقه خلال أرضٍ صخريةٍ جهنميةٍ لم تسمح بأن ينبت فيها أي شيء باستثناء الصخور. تسلّق القلاع واقتات على الزيزان، وأظهر اللوحة المنمنمة لجميع رعاة الجِمال وحفاري القبور والتجار ولكن لم يستطع أيٌّ منهم إخباره عن هوية صاحبة اللوحة، فالنساء لا يُظهِرن وجوههن في هذه البلاد، كما أن اللوحة توحي بالولهِ الشديد وهو أمر يخالف معتقداتهم. قال لهم كازيمير: «ولكن ماذا عن العينين؟ أنتم بالطبع تستطيعون رؤية العينين».

Twitter: @alqareah

7

التحقَ كازيمير دو شاتونوف قرب أنطاكية بمجموعة من المشوهين والعَجَزة في طريقهم إلى الحج لأحد الينابيع المقدسة حيث يعيش عرّافٌ. شعر الحجاج بأن معاناة كازيمير لا تقل عن معاناتهم، فقد امتلأت قزحية عينيه بمشاعر سوداوية.

العرّاف الذي يُعتقد أنه يبلغ من العمر مئتي عام نظر إلى كازيمير بعينين صافيتين لدرجة أن المرء قد يغرق فيهما، ثم قال للشاب المعتوه ذي الشعر الأشعث: «عليك أن تنتظر قسمتك حتى تأتي اليك، فأنت تقف حجر عثرة في طريقها».

«ولكنني قدمت من بلاد بعيدة».

«عليك إذاً العودة من حيث بدأت وتركِ الأمور كما هي».

كان كازيمير يعاني من حمّى سببت له هلوسات لا تنتهي عندما أنقذته مجموعة من علماء الآثار البريطانيين. وبفضل كياسة القنصل الفرنسي نُقِلَ ثانية إلى مرسيليا رغم أنه كان هشّاً لدرجة لا تسمح له بالسفر.

Twitter: @alqareah

8

كان كازيمير دو شاتونوف فاقداً لإحساسه بالعالم المادي عندما سلّموه إلى مستودع الذكريات. تقلّب جيئة وذهاباً بين أروقة المنطق الملتوية، وكان يُركّز حتى في لحظات الهذيان على نقطة اللانهاية في أحلامه التي تقضُّ مضجعه. أغوته الفتاة ذات العين الزرقاء والعين الصفراء خلال متاهة من المدن المشابهة لتلك التي رآها في رحلته إلى الشرق. طاردها في الدهاليز والأبواب المغلقة وأسفل السلالم السرّية. وكانت دائماً تنساب من بين يديه إلى أن أدركها في أحد الأيام فأخذها بين ذراعيه وأخذ قلباهما يدقان أحدهما بمحاذاة الآخر.

قذف نفسه بعنف إلى الأرض ورفع يديه إلى الهواء كما لو كان يحاول الوصول إلى أحدٍ ما عندما أيقظته اسبرانس بواسطة الأنبولة(*) التي تنوي وضعها على ظهره لتخفيف آلامه.

سقطت دمعة على خد كازيمير.

اعتنت به اسبرانس فأرسلت بطلب الثلج من الجبال وصنعت منه الشربات(**) التي عصرتها من ورود الخزامى.

(*) الأنبولة: قارورة صغيرة تحتوي على مسحوق للحقن. (عن قاموس المنهل).

(**) الشربات: لون من الطعام مرطب له طعم الفاكهة ويكون مجلداً بالماء بدلاً من القشدة. (عن المغني الأكبر).

Twitter: @alqareah

تحلَّتْ اسبرانس بجميع صفات الزوجة الصالحة ولكن لم يكن ثمة انجذاب جسدي بينها وبين كازيمير وافتقدت أقل قدر من الشهوات الحسية، حتى إنها لم ترتدِ مطلقاً الصدار الذي أرسله لها كازيمير قبل رحلته الملحمية إلى الشرق كي لا تُتَّهم بالفجور.

قدَّم كُلٌّ من أندريه وأنطوان وألفونس لوالدهم الضفادع والسحالي، تلك المخلوقات ذات الدم البارد لتهدئته. وتمكنت هذه المخلوقات ذات العيون الناتئة والأرواح الشفافة من تسليته.

كان أبناؤه هم السبب الذي جعله يتحمل الحياة المنزلية المتخمة ورتابة الحياة الزوجية. لكن حتى شعور الأبوة أثبت أنه ليس بالقوة التي توقعها.

تخلَّصَ كازيمير من الحمّى بعد ثلاثة أشهر، ومع أنه توقف عن التحديق في العدم اللامتناهي إلَّا أنه أضاع أحلامه. صار «كما ينبغي» فقد تحطم معنوياً وأبدى لامبالاة خانقة. كما صار فاترَ الهمة لدرجة أنه أصبح يجر قدميه على الأرض كما لو أنه فقد القوة اللازمة لرفعهما.

بالإضافة إلى ذلك، فَقَدَ كازيمير رغبته بالأشياء المادية وشوقه لباريس ولعشيقته ذات الشعر الأحمر والشفتين الصغيرتين الشهوانيتين ولأصدقائه الذين لعب معهم ذات يوم البيزيك وشرب معهم الأفسنتسين(*). لم يعد يأبه كذلك للمكتبة أو المسرح أو الأوبرا أو حتى للسيدات ذوات القرينولات المنتفخة اللواتي يتنزهن بمحاذاة التويلري.

(*) الأفسنتسين: عشبة معمرة تستعمل في صنع شراب كحولي يسمى باسمها. (قاموس المورد).

Twitter: @alqareah

تغير كازيمير، فالحياة لم تعد تجربة بالنسبة إليه بل صارت تمريناً. ولم يربطه بها سوى وجود الموت، وهذا ما أغراه بالاتجاه إلى الصيد الذي مارسه بالهاجس نفسه الذي اعتراه عندما لاحَقَ وجه الصورة المنمنمة. فدِقّة الرماية والرائحة الكبريتية المنبعثة من البارود وإطلاق الزناد السريع صارت هدفاً سامياً له.

مكث في شاتونوف دو باب واعتنى بالكروم التي هددت ريح الميسترال(*) باقتلاعها. وابتكر طريقة بارعة لربط الكروم بهدف حمايتها من الريح الباردة والجافة والمتقلبة.

شعرت عائلته بالفرحة الغامرة لرؤيته منهمكاً بهذ الشكل ولأنه صار واحداً منهم ثانية. كما سُرّوا لرؤية مستودع الذكريات يزدهر هكذا لأن كازيمير اهتم بكل شيء.

لكن ذلك لن يدوم طويلاً.

(*) الميسترال: ريح شمالية خفيفة باردة وجافة تهب على المقاطعات الفرنسية الواقعة على البحر المتوسط

Twitter: @alqareah

9

ضرب الطاعون كروم المقاطعة في ذلك الخريف وكان بشكل (فيلوكسيرا ڤاستاتريكس)(*). نظر تجار الخمر بفزع إلى كروم العنب وهي تستسلم بعجز لجشع الوباء العنيد. وبما أنهم فقدوا ثقتهم بالعلم الذي أثبت عجزه عن اكتشاف علاج للوباء، اختار هؤلاء تدمير النباتات التي زودتهم لأجيال بالخمر عالي الجودة. وقرر العديد منهم إتلاف كروم العنب وزراعة الزيتون أو الكستناء مكانها. فأُضرمت النيران بالخمور في الريف وملأت الخمائر الضارة الهواء وكانت رائحتها عذبة ومقززة في آن معاً.

رفض كازيمير الانصياع لهذا الأمر. كان تجاوزه المستمر للمصاعب حافزاً له للعمل. ولم يكن ليسمح بأي ثمن أن يستسلم مستودع الذكريات لهزيمة كهذه. لا بدَّ أن هنالك وسيلة ما. ماذا لو...

(*) نوع من قمل النبات

Twitter: @alqareah

10

عاد كازيمير دو شاتونوف إلى باريس. استردته عشيقته ولكن لم يعد بإمكانه ممارسة الحب معها. جرّبت كل الوسائل والوضعيات وجرعات الدواء. فهي على كل حال مومس كَرَّست نفسها لفنون الحب.

كان بإمكانها طرده من منزلها ولكنها لم تفعل بسبب تلك الليلة التي مارسا فيها الحب قبل يوم من ذهابه إلى الشرق. استلقت بجانبه وهي تشعر بالتوق لاسترجاع تلك اللحظة. لم يلمسها كازيمير، واضطجع هناك في الظلام بعينين تلمعان كما النمر في الليل.

سألته: «ألم تعد تحبني؟».

أجابها كازيمير «الحب هو الاسم الذي نطلقه على الأحزان لمواساة المعذبين. نحن نتألم فقط لأننا إما نشتهي ما لا نملكه أو نملك ما لم نعد نرغب به».

ارتدتْ باريس الألوان السوداء والبيضاء والحمراء، تلك الألوان التي تبدو داكنة وقاتمة بأناقتها المحافظة. إنها تتناقض والشرق الذي شعر كازيمير بحنين متجدد إليه.

بدأ كازيمير بالتردد بانتظام إلى الفيفور أو القهوة الانكليزية

Twitter: @alqareah

«Café Anglais» للعشاء حيث التقى بالارستقراطيين الشباب واجتمع بأناس مثل دوق ريفولي والأمير بول دميدوف والماركيز دو مودينا. توسعت دائرة معارفه بسرعة يوماً بعد يوم مما قرّبه شيئاً فشيئاً من قصر التويلري.

التقى كازيمير في قهوة هيلدر بفردياناند دو ليسيبس الذي كان يبني قناة من خلال السويس. سَرَتْ شائعات بأنه حصل على الامتياز بفضل سنوات من الدسائس في لندن وباريس والقاهرة واسطنبول.

كان دو ليسيبس وسيماً وعنيداً وقد فتن الجميع بكلامه المسرحي المفعم بالنشاط والحيوية. كان تلقائياً ومع ذلك يتفكر في الأشياء. وهو إلى ذلك كله ابن عم الإمبراطورة أوجيني دو مونيجو.

كان يوماً رطباً ومظلماً وقد عانت باريس من شتاء مكفهر ومزمن، وشرب الرجال الأفسنتسين في المقاهي لتدفئة أنفسهم.

قال دو ليسيبس لكازيمير دو شاتونوف: «الحياة الغريبة تفضي إلى إبداع متميز ومن هذا الإبداع تنبثق المآثر الكبيرة والفريدة».

«أَوَليس لتلك المآثر إذاً تبريراتها؟».

«بالضبط».

لم يكن الرجلان ليتعارفا إلّا من خلال لعبة القَدَر. تجرّعا سوية كأساً آخرَ من شراب «الجني الأخضر».

«إلى الشرق إذاً».

«إلى الشرق».

Twitter: @alqareah

11

تعود فكرة ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر إلى العصر الفرعوني منذ نحو ألفي سنة قبل الميلاد. وبدأ نيتشو الثاني ببناء قناة في السنة الستمئة قبل الميلاد ثم تمَّ التخلي عن المشروع.

وفي عام 1798 أبحر نابليون بونابارت إلى مصر على متن بارجة الأميرال التي تدعى «الشرق». وبحث نابليون مجازفاً بحياته عن حطام تلك القناة القديمة مصطحباً معه اثنين من الأدلاء فقط. وقد خسر خلال هذه الحملة أحد الأدلاء وحصانين.

وصفَ المصريون فيما بعد كيف حمل كل رجل رغيفاً من الخبز على رأس حربته وكيساً من الماء حول رقبته وساروا خلال السديم الشبحي كما لو كانوا في نشوة.

شعرَ نابليون بالاضطراب عندما وجد بقايا القناة القديمة قرب السويس، ولكن مهندسيه لم يشاركوه حماسه لأنهم كانوا يعتقدون أن مستوى مياه البحر الأحمر أعلى من مستوى مياه البحر الأبيض المتوسط.

حتى في منفاه، نسخ نابليون مقتطفات من كتاب عن القناة القديمة وكتب ملاحظة لنفسه: «يكمن الحل في حفر برزخ».

Twitter: @alqareah

لم يجرؤ أحد على الاقتراب من المشروع لمدة سبعين عاماً فالصعوبات الهندسية كانت عظيمة.

Twitter: @alqareah

12

فرديناند دو ليسيبس الذي أمضى سنين في مصر كدبلوماسي وشكّلَ تحالفات قوية، كان هو من امتلك أخيراً الخيال والإرادة لتنفيذ رؤية نابليون.

ففي الثلاثين من تشرين الثاني عام 1854، وبعد سنين من العمل الشاق وجمع الأموال، وقّعَ فرديناند دو ليسيبس عقداً مع الحكومة المصرية لبناء القناة، حصل بموجبه على امتياز لمدة تسعة وتسعين عاماً.

كان لدى فرديناند دو ليسيبس ثقة غير عادية بمهارته في التخطيط والبناء. لكن مصدر قوته الأساسية كان قدرته على جمع كبار اللاعبين في مسرح التاريخ الكبير وإقناعهم بـ«قناعاته الأخلاقية». وكان واثقاً بالتزامه العالمي نحو البشرية ولذلك لقّبَ شركته بـ«الشركة العالمية».

وفي نيسان عام 1859 بدأت أول ضربة معول قرب بيلوز، واستمر حفر القناة لمدة عشر سنوات. شارك في عمليات الحفر أكثر من مليون ونصف مصري، وفقد مئة وخمسة وعشرون ألفاً من هؤلاء حياتهم.

Twitter: @alqareah

13

سار كازيمير دو شاتونوف أسفل شارع ريفولي في العربة الاحتفالية بينما كان المشاهدون يحدِّقون ببلاهة في الموكب وهو يدخل ساحة قصر التويلري. نزل من المركبة وقد ارتدى بنطالاً قصيراً لركوب الخيل ومعطفاً بأزرار ذهبية وجوارب حريرية. مد يده باتجاه السيدات في القرينولات المنتفخة لمساعدتهن على النزول. كانت صدورهن شبه عارية باستثناء تلك الأجزاء المغطاة بالمجوهرات والفراء.

تبع كازيمير الضيوف الآخرين ومشوا تحت النقوش خلال البافييون دورلورج حيث وقف بانتباه جنود سويسريون بخوذاتهم المريشة، ينتمون للفرقة نفسها التي قدمت حياتها دفاعاً عن لويس السادس عشر وماري أنطوانيت.

صعد كازيمير درجاً فخماً اصطفَّ الحراس على جانبيه كالتماثيل، ثم اختفى داخل الأملاك الفاخرة لإمبراطور وإمبراطورة فرنسة.

Twitter: @alqareah

14

أُضيئت صالة الرقص بأكملها بمئات من شموع العسل وكان كل شيء بلون الطيف الأبيض، باستثناء ستارة من الجوخ الأحمر المطرزة بالصقر النابليوني الذهبي الذي يمتد فوق العروش. وكان الجميع مرتدياً الأبيض.

وفي جو كهذا وجد كازيمير نفسه يرقص الفالس مع الإمبراطورة أوجيني التي انزلقت كالبجعة في ثوبها المصنوع من التول(*) الأبيض والمزركش بعقدة مخملية وشراريب فضية.

«إن استطعنا تطعيم الكروم المصابة بالفلكسر(**) مع تشكيلة مقاومة من منطقة بحر إيجة، فربما أمكننا ابتكار نوع هجين»، أخبر كازيمير الإمبراطورة بينما كانا يدوران في الصالة. «لم تُجرَّب هذه الطريقة قط».

بدت الإمبراطورة وكأن هذا الرجل ذا العينين الفارغتين كعينيها يسلّيها. لقد سممت الإمبراطورة نفسها عندما كانت فتاة من أجل

(*) التول: حرير رقيق.

(**) الفلكسر: نوع من قمل النبات

Twitter: @alqareah

عاطفة عنيدة. ولاتزال حتى الآن تشعر بطعم فتيل نفايات البارود الفوسفورية والمذاب في الحليب. ومنذ ذلك الحين، فقدتْ حساسيتها العاطفية وتجاوبت بلا مبالاة عابثة تجاه عدد معجبيها اللامتناهي.

ومن الواضح أن كازيمير دو شاتونوف قد جرّب وعانى كذلك من تبعات الحب. وبالطبع، تصرف مثل الإمبراطورة واجتث قلبه. فلماذا اذاً ينعزل الرجل هكذا داخل ذاته؟

Twitter: @alqareah

15

في ذلك الخريف، كان كازيمير دو شاتونوف أحد الذين ركبوا القطار من محطة الشمال إلى كومبيين «المنطقة الفردوسية التي تَعِدُ بتحقيق التطلعات الاجتماعية».

في كل خريف، يتحول هذا القصر الذي احتفل فيه نابليون بونابارت وجوزفين بشهر عسلهما إلى مكان لعب للبلاط. فعلى مدى أيام الأسبوع، تتم تسمية مجموعات وهي عبارة عن ضيوف يأتون جماعات مؤلفة من مئة شخص وكانوا جميعهم يسعون للحصول على خدمة أو عقد صفقة أو تدبير مكيدة.

أما طريقة عرض مرتبةِ الضيف المتكلفة فهي الشيء الذي تراهن عليه كل مجموعة. كانت المجموعة الأولى للأشخاص الضروريين والثانية لثقيلي الظل وكانت المجموعة الثالثة لهواة الموضة أما الرابعة فللمثقفين.

وكانت غرفة المأدبة قد زينت بملائكة مصنوعة من الركوك(*)

(*) الركوك: أسلوب في التزيين وفن العمارة يتميز بالزخرفة البالغة (قاموس المورد).

Twitter: @alqareah

وجداريات مجازية فخمة مشكلة من كيوبيدات(*) وأقواس. جلس كازيمير بين عشيقته ودو ليسيبس الذي كان ضيف الشرف.

وخلال العشاء، أعلنت الإمبراطورة عن نيتها تدشين قناة السويس. «سنبحر إلى مصر على متن اليخت الإمبراطوري. وفي طريقنا إلى مصر سنتوقف في مدينة القسطنطينية لتقديم احترامنا للسلطان الذي شرّفنا بزيارته لنا في العام الماضي».

ثم ابتسمت الإمبراطورة عندما تذكرت ما فعله السلطان الوسيم بعد الوليمة الفاخرة، فقد ازدرد هذا الأخير الإناء الذي قُدِّم إليه لغسل الأنامل على الطاولة والذي يحتوي على الماء وقطع من الليمون التي طفت على سطحه. ثم حذا بقية البلاط حذوه لكي لا يشعر بالإهانة.

سألتِ الإمبراطورةُ كازيمير عما إذا كان يرغب بالانضمام إلى بطانتها: «ربما تستطيع البحث عن الجذور التي تبتغيها هناك، الجذور لكرومك؟».

ابتسم كازيمير بغموض: «لم لا؟» ثم هز كتفيه بلا مبالاة تثير الحنق.

(*) كيوبيد: إله الحب عند الرومان

Twitter: @alqareah

16

تصطاد أوجيني بمزاج وتهوى أن ترقب لحظة قتل الحيوان، كما تستمتع بقتال الثيران التي غالباً ما كانت تشاهدها وهي ترتدي جزمة قرمزية وتحمل خنجراً أو سوطاً بدلاً من المروحة. وكانت تنثر الغبار الذهبي على شعرها الأحمر ذي الرائحة الذكية، أما عيناها الماكرتان فقد كُحِّلتا بالمسكرة الداكنة ولكن تعابيرها المظلمة وجمالها البالغ الرقة صنعا منها رغبة من المتعذر بلوغها.

لم تتردد في انتهاز أية فرصة يمكن أن يضفيه فن الخياطة الرفيع على قوامها النحيل. ومن أجل رحلة السويس أمرت خياطها السيد ورث بتجهيز خزنة ملابس جديدة من القرينولات المقصّبة والمعقّدة. كان هذا الأخير مهدداً في السابق باحتمال خسارة زبونته لأن قارئة الطالع تنبأت بأن أوجيني ستذهب إلى بلاد بعيدة وتقع في الحب.

ولم لا؟ كان زوجها نابليون الثالث زير نساء لا سبيل لإصلاحه. فلم لا تتعادل معه؟

السيد ورث كان مرتدياً قبعته المعتادة وثوبه المبطن بالفرو ويدبر

(*) خراطة: تنورة منتفخة تلبس تحت الثوب. (معجم المنهل).

Twitter: @alqareah

بنفسه الخراطة(*) على خصر أوجيني النحيل التي تمنح ورك السيدات انحناء رشيقاً. كانوا يدعون اختراعه الجديد بذيل الأربيان(*) ولم يكن قد أعلنه للعالم بعد.

طلب منها أن تَعِدَه بأنها ستعود.

ضحكت الإمبراطورة وقالت: «سأعود، سأعود، ألديَّ خيار آخر يا سيد ورث؟».

مجموعة متألقة من الورود وأشجار البرتقال المثمرة وجذور نخيل الهند وفصوص الثوم، هذا ما استنتجه ورث من كلمات أوجيني في فترة بعد الظهيرة تلك. اخترع عطراً يدعى «سأعود»، وقد تعطرت به جميع نساء باريس الجميلات خلال نزهاتهن. وردَّ منافسه بعطرٍ يدعى «الإمبراطورة أوجيني»، وهي رائحة لا تبرح المكان، وتمثل رائحة خلود الإمبراطورة.

صنع المسيو كازال لأوجيني أكثر من دزينة من الباراسولات(**) الجديدة من الورق والحرير والتي تتضمن جميع الألوان. أما مدام غرينغوار من البلاس فاندوم فقد زودتها بأكثر المشدات النسوية إغراءً وفتنة، كما توَّجها شوميه بتاج شديد الأناقة. ثم ملأ صانع حقائبها الخاص، لوي فويتون السفينة البخارية بعددٍ لا يحصى من صناديق الثياب.

قالت له أوجيني: «لقد ولدتُ أثناء زلزال، ما الذي يعتقد به

(*) الأربيان: جراد البحر.

(**) الباراسول: مظلة خفيفة للوقاية من الشمس. (للنساء خاصة).

Twitter: @alqareah

الأقدمون بفأل كهذا؟ من المؤكد أنهم سيقولون إن قدري هو أن أهز العالم، فأنا أؤمن بالقدر».

«وكذلك الأتراك»، أخبرها فويتون وقد أعطاها مفتاحاً يفتح جميع الصناديق: «إنهم يدعون ذلك بالقسمة».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الجزء الثاني

السفر في هذا العالم بحثاً عن الرومانسية
وهذا رغم كل شيء
هدفنا في هذا العالم
«جوزيف كونراد»

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

17

في الثلاثين من أيلول عام 1869 صعدت أوجيني متن القطار الإمبراطوري لتذهب إلى نيس بعد أن خلّفت وراءها زوجها وولدها الوحيد في قصر سان كلود. اصطحبت معها حاشية تخطف الأبصار وتضم دوقة آلب، مدام دولانادایاك والأمير مورا، والجنرال دوياي، والكونت ديفيلييه والكونت دوبريساك والكونت دوكلاري والآنسة دو لارمينا والآنسة ماريون والقائد العسكري روفي والماركيز دو شاتونوف.

شعر كازيمير بالبهجة لذهابه إلى الشرق مرة أخرى. ومع أنه توقف منذ أمد بعيد عن رؤية المرأة ذات العين الزرقاء والعين الصفراء في أحلامه، إلّا أن صورتها بقيتْ مطبوعة عميقاً في ذاكرته.

وصل المسافرون عشية الثاني من تشرين الأول إلى فينسيا، حيث استقبلهم سورفيل، كابتن اليخت الإمبراطوري المسمى بالنسر والذي يشير إلى جرأة نابليون.

وللاحتفال بقدومهم، أُضيئت الساحة في القناة الكبيرة من الداخل وزُين الريالتو بأضواء حمراء ساطعة. وتموجت الجندولات بغرابة كما لو كانت تتنفس بتناغم وارتفعت مناقيرها التي لا تحصى

Twitter: @alqareah

بانحناءات ذروتها الغريبة كحقل من الديناصورات وقد سببت دواراً غير ملائم أصاب الإمبراطورة.

غادر النسر فينسيا في السابع من تشرين الأول وهو يمخر عباب مضيق مالاموكو في منتصف النهار. كانت السماء ذات السُّحب السوداء تنذر بالسوء والريح كالسياط. لكن كازيمير دو شاتونوف لم يتأثر بعنف البحر الهائج.

وفي التاسع من تشرين الأول غادر النسرُ البحرَ الأدرياتي ثم تابع خط الشاطئ على طول الجزر الأيونية ليصل إلى رأس ماتابان حيث يسود بحرٌ أكثر عمقاً وتطغى الرياح الشرقية الشمالية البغيضة.

شعر الكابتن دو سورفيل بالقلق.

لزِمَ الضيوف الملكيون قمراتهم وهم يشعرون بالغثيان والخوف. ستمر الطقس السيء في قناة أورو مما أجبر الكابتن على تخفيف طاقة المحركات حتى تينيدوس لئلّا يتعب المركب ولتجنب المياه الفائضة في المقدمة.

ثم أعلن قائلاً: «علينا أن نغير مسارنا».

وبينما بدأ الأمل بالوصول إلى القسطنطينية بالأفول، اجتمع الركاب في مصلى السفينة. ثم رحلت الرياح فجأة كما لو أن بوسيدون سمع أصواتهم الداخلية. ثمّ تبعتها الغيوم وهدأ البحر.

وفي الوقت نفسه، ظهر الهلال والنجوم في السماء كما لو أن شعار العثمانيين السحري يحتفي بقدومهم.

انزلق النسر إلى الدردنيل حيث استقبلتهم بالهتافات المدوية وإطلاق النار جميع المضائق وضفاف البحار والحصون وأسطول

Twitter: @alqareah

المراكب البحرية المغطاة بأضواء متعددة الألوان. كذلك السفن البخارية من كل البلدان التي رفعت أعلاماً وامتلأت بالناس، تحركت أمام الإمبراطورة لتحيتها ومرافقتها إلى المكان المقصود.

«سنرى أولى المآذن في الفجر»، وعَدَ الكابتن دو سورفيل. «الوصول إلى القسطنطينية في يوم جميل. إنه أمر لا ينسى، صدقوني».

Twitter: @alqareah

18

من خلال قوس من السديم المتلألئ، برزت المآذن للعيان كالينابيع التي انبثقت عالياً نحو السماء وقد تجمدت كالصخور. أما مشاهد الحدائق والهضاب وأشجار السرو والمنازل المكتظة فقد امتدت باتجاه الباب العالي، المكان المقدس للأكروبوليس القديمة.

كانت آسيا على يمينهم وأوروبا على يسارهم. وبدا المشهد شبيهاً بقناة فينيسيا الكبيرة، ضخماً وواقعاً على شاطئ بارباري وانبسطت أمامهم على مد النظر رقعة فسيحة من المياه المتعرجة وقد تزينت بالقصور والمساجد والهضاب السبع التي لمعت في الصباح كشاطئٍ لازوردي.

وخلف الظل، لف المدينة بأكملها صف قاتم من جدران قديمة، غير ممهدة وملتوية، بأبراجها السبعة الضخمة وذلك بفواصل دقيقة.

لقد وصلوا إلى المدينة التي يتوق إليها العالم.

Twitter: @alqareah

19

أثارت برودة الإمبراطورة اضطراب السلطان مذ تعرف إليها خلال زيارته التي قام بها إلى باريس في السنة الماضية. فمنذ اللحظة التي التقاها، تعرف السلطان في نظرتها الباردة إلى قيود امرأة غير منفتحة، امرأة حظيت بكل المقتنيات المادية ولكنها لم تعرف أياً من المتع الروحية.

أراد لها أن تتعرف الألوان والسعادة التي تعيشها زوجاته، كما أراد أن يُظهر لها لمحة خاطفة من الرغبات.

وضعَ تحت تصرفها قصراً مصنوعاً من الأحجار الكريمة يقع على الشواطئ الآسيوية، في وسط حدائق المنغوليا. وفي بيلربي، صُنعت كل قطعة بحسب طلب الزبون من قبل أفضل نجاري الأثاث، كما صنع كل شمعدان أفضل الحرفيين، كذلك زُيِّنَ السرير وجدران الجناح الملكي بألواح مطعمة بعرق اللؤلؤ وبالذبل(*) والفضة.

وتباهت بيلبري بأكثر الحمامات غنىً في القسطنطينية وهي مغطاة برخام أبيض من باروس ذات لون ترابي وآجر من الأيزنيك يعود

(*) الذبل: مصنوع من الذبل أو ملون بمثل ألوان السلحفاة.

Twitter: @alqareah

عمره لمئات السنين. وكانت قبة من الزجاج المموه قد غطت بزينتها الرشيقة بُرك الحمام المعطرة.

أُرسل طاهي القصر الرئيسي إلى باريس لاستقدام الطهاة والندلاء وجلب أدوات المائدة، كما درس فن الطبخ مع ايسكوفييه، الطاهي الأعجوبة. وقد افتخر بابتكار أطباق من أجل الإمبراطورة جمعت بين النزوة والخداع لكلا المطبخين. وعندما أحبت الإمبراطورة مذاق الباذنجان للتو ولم تكن قد تذوقته من قبل، أطلق عليه اسم «نزوة الإمبراطورة»، وعلى الفور، أمر السلطان بإرسال عربة محملة بمختلف أنواع بذور الباذنجان إلى فرنسا.

فكّرت الإمبراطورة: «سيفرش العالم أمامي كبساط أحمر لكي أستطيع المشي عليه. إنني أرى ذلك في عينيه. ولكن أين يمكننا زرع نبات الباذنجان هذا؟ سألت الإمبراطورة باستهتارٍ لم تعهده من قبل.

«في البروفانس ياسيدتي»، طمأن كازيمير دو شاتونوف الإمبراطورة. «ليس بعيداً عن كرومي. فعنب الثعلب ينمو في تلك التربة أفضل من أي مكان آخر في العالم. والباذنجان سيحتاج إلى الكثير من الشمس الجافة».

ظل كازيمير مستيقظاً في ليلته الأولى كما لو كان يريد البقاء يقظاً ليشعر بالحميمية والألفة التي لم يستطع تفسيرها بعد. وقد أحس بحرية اللغة والتصرفات مختبئة خلف عالم البروتوكول الخانع هذا.

راقبَ السفن التي عبرت خلال الليل وحدقَ من خلال النافذة إلى الإنارة المنبعثة من قصري الدولماباه والسيرغان وإلى أبراج الباب العالي المزينة والتي ارتفعت متلاقية. وتملكته رغبة لامنطقية في مشاطرة

Twitter: @alqareah

مدينة القسطنطينية (اسطنبول) ـ هذه المدينة البيزنطية ذات الستة آلاف سنة ـ حركتها الكبيرة.

«عندما رأيت الهلال والنجمة فوق البوسفور، أغلقت إحدى حلقات حياتي»، قرأ كازيمير هذه الجملة في مكان ما.

راوده شعور وكأن حلقة من حياته على وشك الانتهاء.

Twitter: @alqareah

20

بالرغم من تعبها الناجم عن السفر، بقيت أوجيني مستيقظة كذلك وقد تملكها ترقُّبٌ كتوقعات الأطفال.

وفي الفجر، التقى السلطان، الذي بقي في بيليربي واستيقظ على صوت المؤذن، بالإمبراطورة وهي تتنزه وحيدة في الحديقة المعطرة. كانت تبدو في سلامٍ تام.

«الندى على الأوراق»، قالت الإمبراطورة بانبهار، «كم تشبه الألماس».

«إنها دموعها».

التقت نظرات أوجيني بعينيه المتفحصتين اللتين عكستا مقدار اشتياقه ولكنهما أظهرتا في الوقت نفسه بعض التعصب. يبدو عبد العزيز رجلاً متغطرساً ذا حاجبين منخفضين ووجهٍ داكنٍ ينضح بتعابير سوداوية، كما أحاطت به لمسة من الشعر والكآبة.

وفي اليوم التالي، عاد السلطان وهو ممتطٍ صهوة حصانٍ مجهز للقتال وقد تألق صدره بالأوسمة وارتدى طربوشاً مزيناً بزمرّدة كبيرة. نظر السلطان إلى الأمام مباشرة وتجاهل عن عمد هتافات الجماهير بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف «لحن عبد العزيز العسكري».

Twitter: @alqareah

ثم تحول اللحن بسرعة إلى النشيد الوطني الفرنسي، بينما ترجل السلطان من على جواده ومشى باتجاه أوجيني وقدَّمَ لها باقة رائعة من الزهور كان قد زرعها بنفسه وقد خبأ بداخلها أوراقاً من الزمرد رشت بماسات على شكل دموع لتشكل التقليد الأمثل لورقة نبات اعتلاها الندى.

هتفت الإمبراطورة: «الدموع! لم أشهد في حياتي جمالاً كهذا».

«فِتْنَتُكِ وحدها هي التي تحجب جمالها.... أترغبين بشيء آخر يا سيدتي؟».

«واحسرتاه، أرغب فقط بزيارة الحرملك الكبير»، تنهدت أوجيني. «أنا شديدة التوق لزيارته بما أنه لم تسنح لي الفرصة بتاتاً للعيش فيه».

Twitter: @alqareah

21

يضم بلاط السلطان عبد العزيز خمسة آلاف من رجال الحاشية الملكية (باستثناء الخدم) وألف حصان وأربعمئة موسيقي ومئتي خادم يعنون بشؤون القصر، وأربعمئة عامل في المطبخ وخمسمئة عربة وحرملك مؤلف من ألف وخمسمئة امرأة وعدد ممائل من المخصيين لحراستهن.

لكن لم تتحدث أية امرأة في الحرملك حتى كلمة واحدة من الفرنسية كما لم تتكلم أي من السيدات الفرنسيات اللغة العثمانية الغامضة. وطبعاً لن يُسمح لأي رجل باستثناء السلطان بالدخول إلى الحرملك. فكيف اذاً ستتحادث النساء لو أراد السلطان تلبية رغبة أوجيني؟

جالت المشاعل المدينة ليلاً، ثم تذكر أحدهم: ألم تكن هناك فتاة في قصر الدموع، ذلك القصر الكئيب الواقع على حافة قصر توبكابي حيث تعيش بعزلة نساء السلطان السابق المنبوذات؟ كانت تدعى كوكلا وهي تعني «الدمية» في لغتهم، لأنها كانت في إحدى الأيام الدمية الحية لـ ايميه دو ريفيري، السلطانة الفرنسية الأسطورية.

Twitter: @alqareah

22

كانت ايميه دوبوك دو ريفيري المرأة التي غيّرت حياه كوكلا كما غيرت تلك الأخيرة حياتها.

كانت تلك عادة قديمة، فبدلاً من الدمى، كانت تقدم للأميرات وسيدات البلاط فتيات صغيرات كهدايا، وكأنها حيوانات أليفة بشرية. كانت السيدات الملكيات يصنعن الملابس لهن ويلبسنهن وينزعن ملابسهن كما كن ينظفنهن ويطعمنهن. ومن خلال الاهتمام بدميتهن الحية، كانت السيدات تتعلمن الفنون المنزلية، كما تتعلمن كيف يكشفن عن مكنونات قلوبهن. علَّمتْ بعضهن دميتهن المهارات المفيدة كما أحبت بعضهن هذه الدمى بينما ظلمها البعض الآخر.

كانت ايميه دو ريفيري قد أتعبتها الوحدة والكآبة عندما قدم لها أحد المخصيين فتاة صغيرة. ولكن ما أثار انتباه ايميه هو عيناها الغريبتان كهرة أنقرة(*)، فقد كانت إحداهما زرقاء والأخرى صفراء، واعتبرت ايميه ذلك نذيراً.

في البداية، عاملت ايميه كوكلا وكأنها طير نادر. كانت تطعمها

(*) هرة أنقرة: هرة أهلية طويلة الوبر.

Twitter: @alqareah

الحلويات والبندق وكانت كوكلا تفتح فمها وتبتلع اللقيمات من يد السلطانة وتنقرها بهدوء ثم تلوكها. شعرت ايميه بمتعة كبيرة وهي تطعم دميتها لدرجة أن افترّت شفتاها عن ابتسامة لم يشهدها أحد مذ قدمت إلى القصر. أما البستانيون فكانوا غالباً ما يسمعون أغنية غريبة تخرج من نوافذ القصر الخشبية.

الوداع يا مدراس(*)، الوداع أيها الوشاح

تلقت الطفلة تعليمات بألا تتفوه بأية كلمة مع السلطانة، وبما أنها عاشت حياة مليئة بالمشقات خلال سنوات حياتها القليلة، فقد اكتسبت حكمة الطاعة. فالدمى الصالحة تلزم الصمت وكانت كوكلا قد عقدت العزم على أن تكون دمية صالحة.

لكن ايميه دو ريفيري عزت هذا الصمت إلى بطء استيعاب كوكلا أو إلى نقصٍ في خيالها، إلى أن وجدتها ذات يوم تجلس وحيدة في الحمّام فوق المغسلة الرخامية ترش نفسها بالماء.

ومن خلال الرطوبة، تردد صدى صوتها الصغير وقد تضخم كسحابة من البخار.

الوداع يا مدراس، الوداع أيها الوشاح
الوداع يا ثوب الحرير، الوداع يا عقد الكرنب

(*) مدراس: لباس للرأس مصنوع من نسيج خفيف من الحرير والقطن.

Twitter: @alqareah

.....

يا للأسف، يا للأسف هذا القمل دائماً.

كانت الطفلة تردد الأغنية التي تغنيها الفتيات لأحبائهن البحارة في المارتينيك بلهجة المستعمرات التي تتحدث بها ايميه نفسها.

إن كوكلا تعرف الكلمات

وهي تعرف كيف تقلّد

هي ذكية

هي جميلة

إنها ملاك

لا، لا، لا، لا، لقد تأخر الوقت

السفينة فوق العوامة

لا، لا، لا، لا، لقد تأخر الوقت

سوف يبحر عما قريب

تابعت كوكلا الغناء وشاطرتها ايميه الغناء وهي تضحك وتذرف الدموع. عاودت كلاهما الغناء من البداية لمرات عديدة.

الوداع يا مدراس، الوداع أيها الوشاح

Twitter: @alqareah

23

أطلقت ايميه دو ريفيري على الفتاة اسم «الدمية» وأحبتها كلعبتها المفضلة. وكانت رغبة السلطانة بتنشئة الطفلة لتصبح مثلها هو الباعث لها لتحمُّل برودة الليالي والظلام الدامس والوحدة التي تعاني منها في هذه البلاد البدائية.

حاكت لها الثياب التي تناسب الأميرات ووضعت الشرائط في شعرها، وعلمتها حسن التصرف. وبحجة اللعب، نقلت ايميه إلى الطفلة كل ما تعلمته خلال حياتها الصاخبة. علّمتها الفرنسية، لغة أسلافها، كما علمتها القراءة والكتابة والحساب، وأغنيات المستعمرات الأخرى. ولكن أهم من ذلك كله هو القصص التي أخبرتها إياها في لغتهما السِّرية التي تقاسمتاها في قفصهما الذهبي.

بدأت ايميه بسردِ قصتها: «في جزيرة بعيدة تدعى المارتينيك، في البحر الكاريبي، زرعت عائلتي السكر. كنا ندعى بسكان المستعمرات».

ثم سحبتْ خريطة أخفتها تحت الفراش كانت قد سرقتها من سفينة القراصنة منذ أمد بعيد، وخاطتها داخل تنورتها لتتذكر على الدوام أين هي. ثم فتحت الخريطة وأظهرتها للطفلة.

Twitter: @alqareah

«أترين هنا الجزر الثلاث. كان لديَّ ابنة عم تدعى جوزفين (ماريا جوزيف روز تاشر دو لا باجوري) وكانت علاقتنا وثيقة. ربما كانت هنالك قوة في الجزر، قوة غامضة أو شيء خارق للطبيعة جعلنا نلجأ لبعضنا».

«وفي أحد الأيام، وبينما كان الجميع يأخذ قيلولته، تسللنا خلال صفوف قصب السكر اللامتناهية تحت شمس بعد الظهر الحارة لنبحث عن أوفيمي ديفيد، قارئة الطالع الخلاسية التي تعيش في كوخ متداعٍ للسقوط. وامتدت على جانبي الطريق إلى الكوخ أزهار الزنبق من كل الأنواع والخبازى والزنجبيل. وكانت أكثرها إشراقاً عناقد من الأمارلس(*). انظري، إنها كالأزهار الحمراء الكبيرة التي تنمو خارجاً في الحديقة التي زرعتها بنفسي».

«وماذا قالت قارئة الطالع»، سألت الدمية.

«آه، لقد التقطت المرأة أنفاسها عندما نظرت إلى كفينا، ثم قالت: (يا إلهي، يا لحظكما الرائع. لم أر في حياتي مثل هاتين اليدين. يا إلهي، ستصبحان ملكتين كلاكما. ثم هتفت ورسمت إشارة الصليب. ستحكم إحداكما الشرق والأخرى الغرب). ثم ركعت وقبلت تنورتينا».

«ضحكنا، فقد كان ذلك ما تحلم به جميع الفتيات: أن يصبحن ملكات عندما يكبرن، ولكننا بالطبع لم نصدق كلمة من ذلك. قالت جوزفين بأن ذلك غالباً ما كانت تقوله المرأة لكل الفتيات اليافعات،

(*) أمارلس: نبات من النرجسيات

Twitter: @alqareah

وعلينا ألّا نأخذ كلامها بشكل حرفي. ولكن لم يكن لكلينا بالطبع أية فكرة عن المستقبل.

«ماذا حدث لجوزفين؟».

«تلك الفتاة النحيلة الطويلة التي كانت تقريباً كالأخت، ذات يوم.... تزوجت جوزفين ضابطاً يدعى بوأرنيه واتنقلت إلى فرنسا. ولكنهم عندما أعدموه بالمقصلة بسبب الخيانة...».

«ما المقصلة؟».

لم تشأ ايميه إفزاع الفتاة الصغيرة بأهوال العالم الخارجي. «أصبحت جوزفين ملكة الغرب، إمبراطورة بلدٍ بعيدٍ يُدعى فرنسا»، تابعت ايميه حديثها وأشارت إلى الخريطة ثانية. «تزوجتْ فيما بعد طاغية يدعى نابليون بونابرت يطمع بابتلاع العالم. وقد حاول احتلال مصر ولكن للأسف، لم أر جوزفين ثانيةً بعد مغادرتي الجزيرة».

«لماذا؟».

«في اليوم الذي أبحرتُ فيه من فور دو فرانس باتجاه بور رويال، لمحتها للمرة الأخيرة من خلال العبيد المصطفين بمحاذاة الماء. كانت تلوّح بيديها وتغني: «الوداع يا مدراس، الوداع أيها الوشاح»، وهي أول أغنية سمعتني أغنيها، والتي ربطتنا سوية. لوّحتُ لها بدوري ولكن هاجساً داخلياً هتف بي في تلك اللحظة بأنني لن أعود مطلقاً.

«وفي ذات الليلة، لمع ضوء وامض في السماء، كالشعلة المتألقة، كانوا يسمونه شعلة ايلموس. لقد التصق بسفينتنا وشكّل هالةً حولها كالأكليل».

Twitter: @alqareah

ثم اقتفت ايميه دو ريفيري على الخريطة خط سير السفينة وهي تعبر المحيط الأطلسي إلى شواطئ بريتاني الفرنسية.

«هنا نانت حيث درستُ في مدرسة دير الراهبات (سيدات العذراء). أمضيت ثماني سنوات مع الراهبات وأخيراً، أكملتُ دراستي وتوجّبَ عليَّ العودة إلى المارتينيك، ولكنني لم أبلغ غايتي قط».

«ما الذي حدث؟».

«ضربتْ عاصفة هوجاء المركب هنا في خليج بيسكي. وفي منتصف الليل جنحت السفينة ثم بدأت بالغرق. وفجأة، ظهرت بمحاذاتنا سفينة قراصنة جزائرية».

حرّكت السلطانة الفرنسية أصابعها خلال جبل طارق إلى سواحل شمال أفريقيا حيث باعها القراصنة إلى باي(*) الجزائر، ثم حركتها بمحاذاة سواحل المتوسط مرة أخرى ولكن في الاتجاه المعاكس هذه المرة، حيث تجاوزت حطام قرطاجة والتجمعات الصغيرة البيضاء في سيدي بو سعيد وحجارة تونس الحمراء. ثم صقلية واليونان صعوداً إلى بحر إيجه خلال مجموعة من الجزر، تقود إلى يوليسيس، ثم خلال الدردنيل إلى مدينة القسطنطينية، حيث قدمها الباي كهدية إلى السلطان ليكسب عطفه.

«وهكذا دخلتُ الحرملك الكبير وغيّروا اسمي إلى ناكشيديل. وها أنذا أجلس في هذا القفص الذهبي، المرأة المفضلة لدى السلطان التركي الذي يحكم الشرق».

هذه كانت قصتها.

(*) الباي: حاكم الجزائر.

Twitter: @alqareah

استمعت الدمية بانتباه. لكنها لم تتذكر شيئاً عن ماضيها الخاص بها باستثناء صورة مبهمة عن كوخٍ صغيرٍ وغرباء قدموا في الليل. ثم سألت الطفلة: «من أين قدمتُ؟».

انزلقت أصابع السلطانة إلى الحافة الشرقية من الأناضول، إلى وراء البحر الأسود ووضعت دائرة صغيرة حول جبال القوقاز، «هنا من بلاد الأمازونيون القدماء، أنت شركسية».

«ولكنني هنا الآن، وكذلك أنت»، أشارت كوكلا إلى مدينة القسطنطينية على الخارطة.

«نعم، كلانا هنا يا دميتي».

Twitter: @alqareah

24

لم يُسمح لنساء الحرملك بالقراءة، لكن ايميه دو ريفيري تدبرت الوسيلة لجمع المجلدات من أجل ولدها، ولي العهد، لتكون مرجعاً له حول العالم. وبالطبع، استطاعت كذلك إرضاء شغفها السِّرّي بالكتب.

استأجرت السلطانة العلماء لنسخ المخطوطات من اللغات الأخرى، وقد نفذوا ذلك دون أن يفهموا كلمة واحدة، فقد كانوا فقط يطابقون شكل الخط. كما استأجرت المترجمين لترجمة الكلاسيكيات.

وفي المساء، جعلت ايميه الدمية تذهب خلسة إلى المكتبة لتحضر كتاباً. وعلى ضوء الشموع ومن خلال الهمسات التي سيطرت عليها الإثارة، قرأت ايميه للطفلة كل شيء: من الألياذة والأوديسة (التي وقعت أحداثهما في بلاد المنفى) إلى ماديا وسالامبو. وخلال هذه الساعات، تابعتا خطوات الرحّالة العظام، وقد سجنت رحلاتهم الذاتية في حياتهما الداخلية التي بدت وكأنها تغوص عميقاً في مناطق وعيهم التي لم يتم استكشافها.

وهكذا تعلمت الدمية كل شيء بلغة السلطانة القديمة. تعلمت

Twitter: @alqareah

القراءة ورموز الكيمياء القديمة الغريبة التي حولتها إلى صور في ذهنها استحوذت عليها كالدين. كما تعلمت كيف تنظم الشعر بالإضافة إلى فنون البلاغة والخطابة. ولكنها تصنعت الجهل أمام الآخرين لأن النساء مُنعن من اكتساب المعارف وبخاصة في اللغة الوثنية. لا ينبغي أن يعلم أحد بتاتاً بتعقيدات عقلها ولا أن يشك بمعرفتها باللغة الأخرى التي استمتعت من خلالها بالقصص كما لو كانت إكسير الحياة.

«هناك شيء أهم من كل المعارف والمهارات التي نقلتُها إليك ألا وهو الحكمة الكبيرة بألّا تدَعِي أحداً يعلم بما تعلمين. سيكون الصمت رفيقك إلّا إذا.....».

«إلّا إذا ماذا؟».

«إلّا في حالة الحلم الثنائي».

«وما هو الحلم الثنائي؟».

لم تخبرها السلطانة ما هو الحلم الثنائي، وبدلاً من ذلك أخبرتها ثلاث قصص رغم أنها لم تكن مكتوبة. تدعى إحدى هذه القصص بـ«فتى الأدغال»، وتدعى الأخرى «بيتر ايبستون»، أما الثالثة فتسمى «حلم يوشا».

«الحلم الثنائي هو عندما تتشاطرين أحلاماً متوازية مع شخص آخر».

«وكيف ذلك؟».

«تحلمين بحلم شخص آخر ويحلم الشخص الآخر بحلمك».

تنهدت السلطانة واتجهت إلى الديوان لتبدأ حلمها الثنائي

Twitter: @alqareah

وتتوحد مع رفيق أحلامها الروحي. بالطبع، احتفظت بكل ذلك لنفسها ولم تسر به حتى للدمية التي شعرت بأن لـ ايميه حياة أخرى في مكان آخر مكتظ بأناس غير موجودين في هذا العالم. شعرت أيضاً بأنها هي ذاتها ممنوعة من الولوج إلى عالم ايميه.

وفي تلك الليلة، استلقت اللعبة في السرير وهمست لنفسها لمرات عديدة: الحلم الثنائي، الحلم الثنائي حتى لفّتها دوامة من النعاس وغرقت في النوم.

Twitter: @alqareah

25

في مثل هذا الوقت، كان رسام فرنسي جوال يدعى نوماد يشق طريقه إلى القسطنطينية وكان مختصاً باللوحات المعقدة الصغيرة.

استأجرت الإمبراطورة جوزفين نوماد ليتسلل إلى الباب العالي ويرسم لوحة للسلطانة الكبيرة. كانت جوزفين تشعر بالفضول والقلق مذ استلمت رأسية ماسية(*) كهدية من سلطانة الإمبراطورية العثمانية نُقِشَ عليها «إمبراطورة الشرق تعانق إمبراطورة الغرب».

لم يكن لديها أدنى شك بوجود رسالة خفية في طيات هذه البادرة الرسمية.

هناك شخص واحد فقط يستطيع الإشارة لهذه الكلمات التي تفوهت بها قارئة الطالع في المارتينيك وهذا الشخص هو ابنة عمها ايميه دو ريفيري، صديقة طفولتها المفضلة. لكن حطام السفينة التي كانت المسكينة ايميه على متنها ارتطمت بالشاطئ بعد عاصفة هوجاء. لم يكن هناك ناجون، لكن سرت شائعات بأن سفينة قراصنة اختطفت بعض الركاب.

دفع نوماد ذهباً كافياً لإغواء المخصيين بإخلاء الطريق أمامه

(*) قطعة من القماش توضع على الرأس. م.

Twitter: @alqareah

ليتمكن من رسم الباب العالي. وبما أنه من الممنوع أن يد خل أي رجل إلى الحرملك، فقد حظيَ بشرف النظر إلى السلطانة من خلال فتحة صغيرة في مسكن المخصي. كما ابتدع ببراعة كاميرا خفية ليتمكن بواسطتها من رسم صورة طبق الأصل عن السلطانة.

وعندما رأت ايميه صورتها سحرتها دقة الرسم وحيويتها لدرجة أنها طلبت من الرسام رسم صورة للدمية التي كانت في ريعان الشباب.

ثم ألبست السلطانة دميتها قفطانها الخاص الأخضر المطرز بالخزامى الذهبية ولفّت رأسها بعمامة تحتوي على الجواهر. كما أمرتها بأن تجلس بثبات تام وأن تنظر إلى شق في الحائط إلى مالانهاية.

وخلال تلك الساعات التي لا تنتهي، شعرت الدمية بالضيق من أفكارٍ وأحاسيسَ غريبة عليها. من كان خلف الجدار؟ تخيّلت شخصاً يشبه صوراً رأتها لتريستان أو روميو أو بوجست. كما تخيّلت وجود شاب رائع، فالذهن يختلق بحيوية ما لا تستطيع العين رؤيته.

شعرت الدمية بشيء من الفرح المجهول وامتلأت باشتياق رهيب. كانت تستطيع الشعور بأنفاس الرسام في الجانب الآخر من الحائط. وضعَ هذا الأخير شفتيه على الشق وهمس: «كم أنت جميلة!».

لم تسمع الدمية صوت رجل في حياتها باستثناء أصوات المخصيين ذوي الطبقة العالية. الأنفاس الملتهبة والصوت الذكري والنبرة الملاطفة في اللغة الفرنسية، كل ذلك أشعرها باضطراب.

«ولكن عليك نزع ردائك يا جميلتي لأستطيع رسمك كما أرادك الله أن تُشاهدي».

Twitter: @alqareah

ولوهلة قصيرة، كانت الدمية على وشك أن تطيع وتظهر للعالم الخارجي أشد خصوصياتها. لكنها سرعان ما تمالكت رباطة جأشها وهربت خارج الغرفة لترمي نفسها في حوض من الماء المثلج. ولم تخبُ رعشتها حتى بعد تلك الحادثة بأيام.

وشهدت تلك الفترة بداية أحلامها.

حلمتْ بأمير من مدينة بعيدة تسلق الحائط إلى غرفتها وقبّل شفتيها ليقضي على السحر الناجم عن عين شريرة. أحبك. تحدثت الدمية باللغة التي علمتها إياها ايميه. ثم سافرت مع أميرها على متن جمالٍ طائرة إلى بلاد بعيدة كما لو كانت إحدى روايات «أسفار سندباد الذهبية».

لم تخبر ايميه دو ريفيري بحلمها ولكنها حدثتها عن رعشتها الغريبة.

شعرت ايميه بلمسة من البحاح في حلقها فسعلتْ وصعد الدم إليها.

لم تفكر ايميه قط في موتها، كما لم تفكر في مستقبل للدمية بعيداً عن مستقبلها، لأن الدمية كانت رغم كل شيء لعبتها. ولم يكن لأحد الحق فيها.

وتجاهلت ايميه مشاعر الغيرة والرغبات السوداء في الحرملك حيث تسبب عيوب النساء وفضائلهن الدمار. ما الذي سيحدث للدمية إن ماتت؟ وكيف ستعاملها النساء اللواتي كن يَغَرْنَ منها؟

حدث ذلك ببطء، فقد ذابت ايميه شيئاً فشيئاً إلى أن استحوذ داء السل على حياتها.

Twitter: @alqareah

26

كان الأب كريستوف راكعاً يصلي في دير سان أنطوان عندما وصل حارسان على عجل وسلّماه رسالة مختومة بالختم الإمبراطوري.

ثم رافقه الحارسان نزولاً إلى منحدرات ومنحنيات شوارع بترا وصولاً إلى منبسط غالاتا حيث ينتظر مركب شراعي رائع. وقد أبحر من الشاطئ باتجاه الضباب الأكمد ليتحول سريعاً إلى سراب.

وعلى الدرج الرخامي أعلى المدخل إلى بوابات السعادة، كانت هناك النقوش التالية:

ليحفظ الله مجد الملك للأبد
ليجمّل الله أبنيته
وليقوِّ الله أساساته

رسم الأب كريستوف إشارة الصليب، وللمرة الأولى في التاريخ، دخل قس إلى الباب العالي.

تبعَ الحرّاسَ خلال الساحة ثم إلى مدخلٍ ثانٍ، خلال قصر

Twitter: @alqareah

الانكشارية، ومستودع الأسلحة ودار صك العملة والاصطبلات الإمبراطورية وبيوت الطيور والمطبخ والجامع.

أناروا مشعلاً قرب باب صغير يحتوي على نقوشات. ثم قاده مخصي خلال سرداب طويل صعوداً إلى درج ضيق باتجاه الحرملك.

رقدت امرأة شاحبة على سرير مترف وجلست بجانبها فتاة شابة تمسك بيدها. «ترغب السلطانة بالموت على دينها الأصلي، أرجوك»، أخبرت الشابة القس بالفرنسية ثم خطت نحو العتمة.

استمع الأب كريستوف إلى اعترافات المرأة المحتضرة إلى أن أصبحت الكلمات همسات، ثم تلاشت أخيراً. منحها القس الغفران. وبينما كان يتمتم بالكلمات الدينية وهو يمسحها بالزيت، سمع صوتاً خافتاً من العتمة:

-

الوداع يا مدراش، الوداع أيها الوشاح.

Twitter: @alqareah

27

غرقت الدمية بحالة من الكآبة بعد موت ايميه، ففقدت الكلمات ولم تجد عزاء إلّا في صفحات الكتب.

لم تملك الدمية أية مهارات يستطيع الحرملك الاستفادة منها، فهي تجهل كيفية صنع أنواع الشراب أو الثياب، كما لم تحظَ بأي تدريب على الأمور العاطفية. كان اهتمامها الوحيد هو العناية بالمكتبة، إلى أن أصبحت القيِّمة عليها.

كانت تسحب الكتب من على الرفوف الواحد تلو الآخر، وتتبع أصابعها ظهر الكتاب بلطف وتداعب حاشيته وتلمس جلدته بشفتيها. وبينما كانت مسَّاحة الغبار تتدحرج بوهن على كل صفحة، كانت عيناها تتجولان في الكلمات التي تحولت إلى جُملٍ ثم إلى فقرات. وهكذا التهمت جميع القصص.

أحصتْ عدد المجلدات ذات مرة، فبلغ الرقم ألفاً وواحداً. ثم عقدت العزم على حفظها جميعها.

لكن سرعان من انتشرت شائعات في الحرملك تفيد بأن دمية السلطانة تستطيع قراءة الكتب في المكتبة وتعلم كل ما تحتويه.

ذات ليلة، اكتشف رئيس المخصيين الدمية، وقد أضاءت الشمعة

Twitter: @alqareah

حول شق في الجدار وضعت فيه الكتب. كانت تقرأ لنفسها مذكرات الليدي مونتاغو وأكملت القراءة بصوت عال:

لو تبعتُ نزواتي بشكلٍ كاملٍ، لكنت قد سافرت، فهي رغبتي الرئيسية. لو كنت سأحظى برفيق، لكان شخصاً أحبه كثيراً ويحبني بدوره، شخصاً يرى أنه لا يعيب الرجل العاقل أن يشعر بالرضى وهو يتحادث مع امرأة عاقلة، شخصاً لا يعتقد بأن الرقة تلحق العار بفهمه.

كانت الفتاة بلا ريب على حافة الجنون وتدنيس المقدسات.

Twitter: @alqareah

28

حُكِمَ على الدمية بالانتقال إلى قصر الدموع بقية حياتها.

Twitter: @alqareah

29

في تلك الليلة من تشرين الأول، بعد ذلك بعدة سنوات، جال الباحثون في المدينة عن امرأة تتحدث الفرنسية، بينما كانت الإمبراطورة أوجيني تتناول وحاشيتها العشاء في السفارة الفرنسية.

عبر القرن الذهبي، رقدت الدمية على الفراش الرطب في المهجع المظلم الذي تتقاسمه مع خمس شابات أخريات، بعيداً عن قصر السلطانة الفرنسية التي رحلت إلى السماء منذ سنوات. وأصبحت الدمية الآن امرأة في ريعان الشباب.

رقدت الدمية في الفراش وهي لا تزال مستيقظة، وقد استذكرت ثانية ذلك الحلم في ذهنها عن حبيب أحلامها الذي طارت وإياه في السماء على متن الجِمال. وقد بدأت تحلم بهذا الحلم عندما بدأت أزهار الأمارليس تُورِدُ باكراً لتتحول إلى زهرٍ قرمزي.

ولكنها حتى خلال فترة استيقاظها، كانت ترى وجهه يطارد جميع أفكارها. ومن اللحظة التي التقت فيها عيناهما، رأت فيه رجلاً من زمن آخر ومن عالم آخر شعرا خلاله بالحميمية وبأنهما لا يفترقان.

كانت الدمية لاتزال راقدة في الفراش تحاول تركيب صورة الرجل في ذهنها، عندما سمعت صوت جلبة في الخارج. فتحت

Twitter: @alqareah

عينيها لتجد نفسها شريكة للعفن في هذا المهجع مع دمى أخريات منبوذات مستغرقات في النوم إلى جانبها.

اقتربت أصوات الخطوات أكثر فأكثر. تم جرجرتها من الفراش ولُفَّت بملاءة من الحرير ثم اقتِيْدت خلال متاهات قصر الدموع إلى عربة.

وبينما تحركت العربة محدثة جلبة فوق الشوارع المكونة من الحصى، تلألأت الليلة بالنجوم من خلال ثقوب النوافذ الشبكية، حتى إنها استطاعت استنشاق نسيم الليل فوق البوسفور.

ثم توقفت العربة ولُفَّ غطاء حريري آخر حول الدمية وقادوها إلى مركب بخاري. ولكن إلى أين يأخذونها؟

تذكرت ليالي الخطف في القصر، والروايات التي سمعتها عن مئات من نساء الحرملك اللواتي أُدخلن في أكياسٍ ثم رُمين في البحر لإرضاء نزوة سلطانٍ معتوه. وتخيلت غابات من المحظيات اللواتي قضين تحت البحر.

لم يكن الخوف هو ما يسيطر عليها بل الفضول.

Twitter: @alqareah

30

فُتِحت البوابة الحديدية الضخمة لتظهر ساحة القصر الجديد الملقب بـ«بيليربي».

«لكنها ضعيفة جداً»، تمتمت القيِّمة على النساء لاهثة، وقد صدمتها بشرة الدمية الشاحبة، التي كانت هشة كاللوحات المنمنمة وذات لون مخضر بسبب عدم تعرضها للشمس.

قال أحدهم: «إن إحدى عينيها صفراء والأخرى زرقاء، ألا يجلب ذلك الحظ العاثر؟».

«لكنها الوحيدة التي تتكلم اللغة الفرنسية».

«إذاً، علينا إيجاد طريقة لتحويلها إلى امرأة جميلة».

غسلت النساء الدمية ودهنَّها بالمراهم، ثم أطعمنها لحم الضأن المغلي وسقينها شراب الفواكة، كما دهنَّ شعرها وأظافرها بالحنة وبشرتها بزهرة العطاس لتستعيد توردها.

وفي الصباح، اختفى اللون الأخضر الذي كان يطغى على بشرتها مع أنها لم تستعد عافيتها تماماً. كما وضعنَ الحمرة على وجنتيها وطلينَ شفتيها باللون الأحمر الزاهي. ثم عقصنَ شعرها على شكل مجعد مقلدين الإمبراطورة أوجيني وجمعن خصلات الشعر

Twitter: @alqareah

عالياً كعناقيد من العنب. وألبسنها قفطاناً قديماً من ملابس ايميه دو ريفيري، ذلك القفطان بورود الخزامى الذهبية الذي جلست فيه أمام الرسام الخفي الذي تحدث إليها من الشق السري، الرسام الذي رسم جميع لوحاته من خلال الكاميرا الخفية والذي أثارها بكلمات الغزل وجعلها تدرك أن لها قلباً اختفى بعد ذلك مع اللوحات. وتساءلت ما الذي حصل للوحات؟

وعندما نظرت الدمية إلى نفسها في المرآة الكبيرة، رأت ايميه دو ريفيري، ليس بصفاتها الجسدية بل بجاذبيتها وإشراقة روحها، مع فارق أن لها عيناً صفراء وأخرى زرقاء.

Twitter: @alqareah

31

«ياللروعة»، همست إحدى السيدات الفرنسيات لجارتها، «انظري لفستانها، كم هو غريب».

«ألا تذكرك بجاريات مسيو انغريه؟».

«ولكن هل رأيت قط مثل هاتين العينين!».

سألت الإمبراطورة الفتاة عن اسمها بالفرنسية.

وعندما سمعت الدمية اللغة السرية التي علمتها إياها السلطانة، تورد وجهها وأجابت: «الدمية، ياسيدتي». ثم انحنت باحترام كما علمتها ايميه دو ريفيري.

«الدمية»، رددت السيدات بلهجة سكان المستعمرات. ضحكن جميعهن باستثناء الإمبراطورة التي حيرتها عينا المرأة الغريبتين. وكذلك كان حال شخص واقف في الشرفة خلف النافذة الشبكية المعتمة.

تسمر كازيمير دو شاتونوف في مكانه وكأنه تمثال. كان يشعر وكأنه مُنوَّم مغناطيسياً بتأثير صوت المرأة الشابة: أحبك. أحبك.

«الدمية»، ردد لنفسه.

لم يكن هناك شك، ليس ثمة شك.

Twitter: @alqareah

لم يحتمل جسده تأثير هذا القرب من الشابة. وكان قلبه على وشك أن ينفجر خارجاً من جسده.

كانت الدمية غافلة عن وجود كازيمير، ولكنها شعرت بأنها أصبحت موضع اهتمام السيدات الفرنسيات. وأحست وكأن لغة جسدها بأكمله قد تغيرت لتتماشى مع الكلمات التي تخرج من شفتيها. كما شعرت بنفسها وقد استرجعت طبيعتها القديمة التي عرفتها مع ايميه دو ريفيري. وأكثر من ذلك، شعرت وكأن هناك كائنين بداخلها يتعايشان بتناغم كامل.

«يا له من خليط بين جارية وامرأة من الحاشية الملكية»، فكرت أوجيني وهي مستغرقة في التأمل. «يبدو أنك تدربت جيداً على بروتوكولات القصور أيتها الدمية».

خفضت الدمية بصرها وركزته على السجادة الأناضولية التي حيكت برموز الآلهات المزدوجة والماعز والأنهار، وقد تاهت في تناسقها المعقد. لم تدرك للآن لماذا أحضروها إلى هنا، فقد تجاوزت العمر الذي تصبح فيه دمية إمبراطورة أخرى. من هؤلاء السيدات اللواتي تحدثن إليها بلغة ايميه دو ريفيري وماذا يبغين؟

خاطبتها الإمبراطورة قائلة: «أيتها الدمية، يبدو أنك المرأة الوحيدة في المدينة بأسرها التي تتحدث الفرنسية، ولكن حدثينا كيف استطعت تعلم لغتنا بهذه البراعة وبتلك اللهجة المنكهة؟».

بسطت الدمية الخارطة القديمة المخبأة في درزة تنورتها الداخلية ووضعتها على الأرض، فتحلقت حولها السيدات ذوات القرينولات.

بدأت الدمية كلامها قائلة: «هذا هو المكان الذي عاشت فيه ذات يوم السلطانة الفرنسية ايميه دو ريفيري في إحدى الجزر الثلاث

Twitter: @alqareah

البعيدة في البحر الكاريبي التي تدعى المارتينيك، ويدعى قاطنوها بسكان المستعمرات».

كان الجميع عارفاً بقصة ابنة عم جوزفين بونابارت من جزر المارتينيك التي اختطفها قراصنة الشرق ولم يُسمع عنها ثانية. وقد انتشرت شائعات بأنها أصبحت ملكة بلاد غريبة، لكن الجميع ظن بأن هذا الأمر لا يعدو كونه أسطورة، فهذه الأشياء لا تحدث في الحياة الحقيقية.

كما كان الجميع يعلم بقصة الرأسية الماسية التي استلمتها جوزفين من السلطانة العثمانية والتي نُقشت عليها الكلمات: «ملكة الشرق تعانق ملكة الغرب». كذلك يعلم الجميع عن محاولات جوزفين الاتصال بالسلطانة والتي أخفقت لأن نساء الحرملك ممنوعات من الاتصال بالعالم الخارجي.

سحرت الدمية السيدات الفرنسيات وتناثرت القصص من بين شفتيها كاللؤلؤ وقد شعرت بانطلاق لسانها في اللغة الفرنسية بحرية لم تعهدها من قبل. خرجت الكلمات من فمها بسرعة وانسكبت وكأن فيضاناً قد بدأ بالتدفق. أما الأصوات فانطلقت كالأغاني في الهواء، عذبة كالمارتينيك وتحولت لأغانٍ سعيدةٍ. الوداع يا مدراس، الوداع أيها الوشاح.

جميع التعابير التي استخرجتها من قراءة كل تلك المجلدات في المكتبة نضجت وحولتها إلى راوية للقصص لا يُشق لها غبار.

لم يفترض الجمهور المأسور بأن القصص التي روتها الدمية كانت في الواقع عن أناس وأماكن حقيقيين ولكنه لم يكن ليأبه لذلك. استمعوا وطلبوا المزيد فقد وجدوا شهرزادتهم.

Twitter: @alqareah

كذلك كان حال كازيمير دو شاتونوف، فقد ارتعش فؤاده وأحس بعالمٍ مألوفٍ وغريب بالنسبة إليه في آن معاً. كما كبح جماحه لئلا يتصرفَ بحماقة أو بعفوية. أما الآن، فقد أصبح بلا ريب وجهاً لوجه مع قَدَرَه الحقيقي وشعر بأنه سيضعف مشاعره العاصفة إن أفصح عنها باكراً.

انتظر حتى تجدك قسمتك.

انطلقَ خارجاً ليستنشق الهواء الطلق ونزعَ عنه ثيابه ثم قفز في مياه البوسفور رغم أنه سمع أن ذلك خطير. ولكن بما أن اللورد بايرون سبح ذات مرة خلال المضيق نفسه، فباستطاعته فعل ذلك أيضاً.

Twitter: @alqareah

32

بينما انجرفت السيدات أسفل السويت ووترز (المياه العذبة) في آسيا لحضور حفلة ختان في واحدة من القوارب الملكية، سألت الإمبراطورة أوجيني الدميةَ عما إذا كان ثمة شيء ترغب به.

«نعم يا سيدتي. أرغب بزيارة ايميه دو ريفيري».

قادتهم العربة الملكية إلى ضريحٍ قرب سانتا صوفيا، في حدائق جامع محمد الفاتح.

أحاطت أسراب من الحمام الأبيض بالقبة الزجاجية المسجونة في حديد مخرم يشبه البيوت الزراعية المستخدمة لزراعة البرتقال. كانت النوافذ المغطاة بالغبار شفافة فيما مضى، وقد ذبلت ألوان القماش المخملي المطرز بالذهب والذي يغطي ضريح ايميه. وكانت مجموعة من الأعشاب الضارة تخفي النقوش التالية: «المحبوبة، التي فتحت أبواب الغرب...».

ركعت الدمية على الأرض وانتزعت الأعشاب الجافة. ثم أخرجت من منديلها بصلة الأمارليس والتي بدأت بزراعتها حول تربة القبر، ثم سقطت الدموع على وجنتيها.

راقبها الجميع بصمت.

Twitter: @alqareah

أُخذت الإمبراطورة بالدمية، تلك المخلوقة المدهشة من المملكة السحرية. سُحرت بلون عينيها، وبالطريقة التي تقلِّب بها حرف الراء وكأنها تتذوق طبقاً تركياً شهياً، كما أُخذت بتركيزها الجدِّي.

يا للضجة التي قد تحدثها في بلاطها! دمية حية. أهناك شخص أفضل يمكن أن تصطحبه معها عند عودتها إلى فرنسا؟

تخيّلت أوجيني تأثير ذكاء الدمية على رجال البلاط، وكيف ستأسر ألباب الضيوف في الكومبين بقصصها المدهشة وطريقتها الساحرة في سردها. كذلك تساءلت عن نوع العطر الذي سيستخلصه المسيو ورث من هذه المخلوقة الفاتنة؟ وما هي الأزياء التي يمكن أن توحي بها؟ كيف يمكن أن يخلِّدها فينترهالتر في أقمشته؟

وبرعبٍ، فكّرت أوجيني: «وأخيراً، وليس آخراً، كيف يمكن أن تقع الدمية فريسة لشهوات زوجها التي لا يمكن ردها».

Twitter: @alqareah

33

فيما بعد، في فترة ما بعد الظهيرة تلك، صعدت السيدات إلى متن السفينة التي سيّرها أربعون من المجذفين الذين يرتدون ستائر مطرزة بالذهب. وبينما كانوا يقتربون من الدولماباشه، مقر السلطان، تساءلت أوجيني ما الذي ألمح إليه ثيوفيل غوتيه عندما وصفه بـ«لويس الرابع عشر الشرقي...».

كانت هناك مجموعة متواصلة من درجات السلم الرخامية تمتد من مدخل القصر إلى حافة الماء لتختفي تحت الأمواج. أما القصر الأبيض الذي انعكست صورته على المياه، فقد نشر فيما حوله شعوراً بالقوة والأبهة والمتعة.

قادت مجموعة من المخصيينَ السيدات خلال الرياض الفرنسية التي اعتنى بها بستانيون أوروبيون، ثم صعدوا إلى الدرجات الرخامية ليصلوا إلى المدخل الرئيسي ليظهر فجأة درج بلوري. كانت هنالك مجموعتان متواصلتان من درج السلم المغطى بالسجاد الأحمر التقتا في منبسط الدرج لتنقسما ثانية إلى رواقين مكسوين بدورهما. وقد دعمت الدرابزين بمئات من الأعمدة البلورية.

مشت السيدات خلال عددٍ لامتناهٍ من الدهاليز التي امتلأت

Twitter: @alqareah

إشراقاً والتي فُتِحت بدورها على غرفٍ ضخمةٍ غطى جدرانها لوحات جصية من الطراز الباروكي وقد أُضيئت بقببٍ بلوريةٍ قرمزية.

أخيراً وصلت السيدات إلى أكبر غرفة عرش في أوروبا، حيث تسند مجموعة من الأعمدة الكورنثية الطراز السقف المقبب ذا السحب الذي تخدع النظر وأكاليل الزهور والستائر.

جلس السلطان في العرش المذهب الذي تم نقله من توبكابي والذي جلس عليه جميع أسلافه. ووقف بنوعٍ من التراخي من حق الملوك فقط إظهاره، ثم أمسك بيد أوجيني وطبع قبلة عليها.

أحدثت السيدات جلبة (فقد سَرَتْ شائعات بأن السلطان والإمبراطورة قد وقعا في الحب). تورد وجه أوجيني. لقد كانا ثنائيين مميزين.

يقع الحرملك في الجانب الآخر من مرايا سانت غوبان ذات الإطار الباريسي البرونزي. ومن خلال نافذة شبكية صغيرة، رأت أم المحجبات ولدها يقوم بتصرفٍ لم يفعله من قبل، شيء قام به ليبهر المرأة الفرنسية بالطبع، شيء من المؤكد أنه قد رآه في بلاطهم، شيء لا يغتفر. لقد أعطى ذراعه للإمبراطورة.

أخذت أوجيني ذراع السلطان وقد ومضتْ عيناها بطريقة تعدت مجاملات البروتوكول.

فُتحت الأبواب الطويلة المصنوعة من خشب السّنا على مصراعيها وتخطى الجمع الحدود الفاصلة ليدخلوا إلى الحرملك.

جلست برتيفال، السلطانة الأم، على ديوان منخفض وقد أحاط

Twitter: @alqareah

بها العديد من السيدات اللواتي ارتدين بنطال الحرملك المصنوع من القماش الدمشقي تحت ثوب داخلي فضفاض مصنوع من القماش الرقيق المطرز بالأزهار الفضية وهو ذو أكمام طويلة تتدلى إلى منتصف الذراع. كما وضعن على رؤوسهن قبعات مطرزة بالذهب والفضة تدلت منها باقات كبيرة من المجوهرات لتبدو كالزهور. وقُسِّمَ شعرهن إلى ثلاث جدائل احتوت على اللؤلؤ والشرائط وقد سقطت بطولها كالشلالات على ظهورهن.

عندما رأت السلطانة ابنها يدخل يداً بيد مع تلك الساحرة النحيلة ذات الشعر الأحمر والتي تبدو كأنها تلبس قفصاً كبيراً للطيور تحت تنورتها، عندما رأت ذلك كله انتابها غضب شديد وبسرعة غير متوقعة، قلّدت حركة البصق على الأرض ثم صفعت الإمبراطورة.

جمدت أوجيني.

لم تكن تلك البداية جيدة.

تمتعت السلطانة الأم بامتياز يجعل جميع أفعالها مبررة أخلاقياً. ألم توقف حياتها لحماية ابنها؟ ألم تطهُ بنفسها دزينة من البيض المسلوق التي كان يطلبها في كل وجبة؟ من الذي قدم له ذلك البيض على الحرير الأسود الذي نقش عليه ختمهم؟ وهو النقش نفسه الذي طبع على السجاد المطرز الذي يفرش أمامه عندما يقطع الشارع وهو في طريقه إلى المسجد؟

نظرت أوجيني إلى السلطان بأعينٍ متوسلةٍ. تحدث عبد العزيز ببضع كلمات إلى أمه بلغتهم الغريبة وقد أجابته تلك الأخيرة بعينين متورمتين وصوتٍ متوتر.

Twitter: @alqareah

لم تترجم الدمية ذلك.

وقفت أوجيني مذهولة. ماذا ينبغي أن تفعل؟ إنها ضيفة، ولا تستطيع أن تدير ظهرها وتخرج هكذا بكل بساطة. ماذا لو ردّت الإهانة؟

أومأ السلطان للسيدات الفرنسيات ليجلسن على الأرائك عن يمينه ولسيدات الحرملك ليجلسن عن يساره. ثم حيّاهن وتركهن بمفردهن.

«هناك فرق بين عاداتنا وعاداتكم»، همست الدمية للإمبراطورة الفرنسية، «لا ينبغي على المرء أن يعارض أم المحجبات مطلقاً».

«لكنني لا أستطيع أن أدع هذه اللحظة تسجل في التاريخ».

«لكن ذلك قد حصل بالفعل يا سيدتي. علينا الآن الجلوس واحتساء الشاي مع أم المحجبات».

جلست السيدات بصمتٍ لمدة دقيقة بدت وكأنها لن تنتهي، وتخللها فضول الطرفين ودخول المحظيات لتقديم الشاي والحلويات.

ثم تفحصت السيدات جواهر وملابس وشعر بعضهن البعض، وسُمع صوت تحريك الشاي وأكل البسكويت.

ابتسمت السيدات الفرنسيات ليهدئن من روع السيدات التركيات، ولكنهن لم يحظين باستجابة مشجعة.

«نحن تقريباً عائلة واحدة»، بدأت أوجيني بالكلام لتقطع الصمت المطبق في محاولة جديدة لاستعادة كبريائها.

«نحن تقريباً عائلة»، بدأت الدمية بالترجمة وهي تقلد صوت أوجيني بصورة مثالية.

Twitter: @alqareah

«لقد تزوج عم زوجي نابليون بونابرت من جوزفين التي كانت ابنة عم ايميه دو ريفيري».

ترجمت الدمية ثانية.

«لم توجد قط امرأة كهذه»، أعلنت أم المحجبات وهي تنفي ذلك قطعياً، ثم أكملت: «لقد اخترع الفرنسيون تلك القصة التي تفيد بأن السلطانة ناكشديل هي ايميه دو ريفيري لأنهم يريدون أن يملكونا».

«لم يكن هناك امرأة تدعى ايميه دو ريفيري»، ترجمت الدمية مجدداً.

«فقبر من زرنا اليوم في فترة ما بعد الظهر؟ ألا تثبت قدرتك الفائقة على التكلم بالفرنسية وبهذه اللهجة بأنها وجدت بالفعل؟» لفظت أوجيني تلك الكلمات بشكل متداخل وغير مفهوم، فقد بدأت تفقد صبرها.

«نعم يا سيدتي. لكن كل منا يجرب الحياة بشكل مختلف. ولكل منا حياته السرية، وبعض عوالمنا غير مرئي للآخرين».

شعرت أم المحجبات بالسخط من استمرار التحدث بتلك اللغة التي لم تكن تفهمها. وبما أنها لم تُفرّق بين كلام الإمبراطورة والترجمة، فقد وجهت نقمتها على أوجيني إلى الدمية.

لا بد أن الفتاة كافرة(*) وجاسوسة للإمبراطورة الهمجية. عليها ألا تجلس في صحبتهم لئلا تستمر بالحصول على أفكار فاسدة أخرى. عليها أن تعود ثانية إلى قصر الدموع.

(*) كافر: شتيمة يطلقها الأتراك على غير المسلمين (المورد).

Twitter: @alqareah

«ماذا قالت؟» سألت أم المحجبات الدمية.

«قالت الإمبراطورة بأنها أيضاً تشك بهذه الرواية».

«لماذا تطلق اذاً هذه التعليقات الفظة؟».

«لأن الإمبراطورة تظن بأن ذلك من حسن السلوك».

وفي تلك اللحظة بدأت مئات من الساعات ترن على نحو متآلف لخمس دورات. وساهمت أجراس دير الرهبان الميكانيكية وطيور الوقواق والألحان الموسيقية في توتير الجو. وفجأة، وثبت السلطانة الأم ثانية مع سيداتها الجالسات ودلفن خارج الغرفة كما لو كانت لديهن مهمة أكثر أهمية.

«ما الذي ينبغي علينا فعله الآن؟» سألت أوجيني الدمية.

«علينا أن ننتهي من احتساء الشاي».

وهكذا جلست السيدات الفرنسيات هناك بمفردهن يحتسين الشاي بصمت.

Twitter: @alqareah

34

قدّمت المأدبة التي قامت في صالة الاحتفالات للخمسة آلاف ضيف أطباقاً في غاية الإثارة تمزج بين الشرق والغرب. واحتوت الأطباق الاثنان والعشرون على مختلف أنواع لحوم الحيوانات حتى إن أسمائها توحي بالرغبة:

الشوربة على طريقة السيفينه

لفائف اللحم على طريقة الملكة

رقاقة الكبد المقلية على طريقة لوكولوس

رقاقة الأناناس المقلية على طريقة السلطان

قدة من لحم طير التدرجة على طريقة السيركازين

سمك القاروس على طريقة الفاليد

شفتي الجَمال

غمازة المحظية

نداء روكساليا

Twitter: @alqareah

فخذ «كادين».

وقف كازيمير مع بقية الرجال وهم يحتسون الشمبانيا بينما عزفت الفرقة الموسيقية مقاطع من معزوفة موتزارت «اختطاف من سيراغليو». تذكر كازيمير كلمات نص الأوبرا عندما قدِمَ بلمونت لإنقاذ محبوبته كونستاز من الباشا الشرير الذي اختطفها.

صمت الجميع فجأة للحظة عندما أُعلن عن دخول الإمبراطورة وبدأت الفرقة الموسيقية بعزف مقطوعة «المارش التركي».

دخلت أوجيني إلى الصالة وكانت قد ارتدت فستاناً فضياً ذا ياقة منخفضة ووضعت على رأسها تاجاً من الماس واللؤلؤ الخالص، كما لمع جيدها بأعظم الماسات على الإطلاق، إنها ماسة الحاكم التي تنتمي إلى العرش الفرنسي.

تبعت الدمية الإمبراطورة وقد مشت خلفها بخطوات قصيرة تتسم بالغرابة. كانت ترتدي ثوباً من القرينولات ذا لون أزرق ملكي أهدتها إياه الإمبراطورة من أجل المناسبة (وكان يحمل توقيع ورث بالطبع). ولكنها ارتدت الحجاب بسبب وجود رجال في الغرفة.

تحركت كما لو كانت تنزلق. أشعرتها الصالة التي تعج بالأمراء والسفراء والسيدات الأجنبيات الأنيقات بالدوار. كما أنها لم تكن قد وُجِدتْ في صحبة الرجال من قبل.

لم يستطع كازيمير أن يبعد نظراته عن الدمية، وقد كان لون عينيها لافتاً للنظر بشكل أكبر في الحقيقة.

Twitter: @alqareah

خلال العشاء، جلس السلطان بجانب الإمبراطورة وقد استغرق في ذكرياته عن رحلته إلى باريس مع ابني أخويه، وكانت تلك المرة الأولى التي يسافر فيها سلطان إلى مدينة أوروبية. وكان السلطان جذاباً بطريقة متواضعة، ومع أنه لم يعلم أي شيء البتة عن فنون الغزل، إلّا أنه يملك رجولة الشرق أوسطيين التي يفتقدها المتوددون إليها.

كما أن لديه حرملك فيه العديد من الزوجات والمحظيات، وهو بذلك لا يختلف حقيقة عن زوجها نابليون الثالث الذي يملك زوجة واحدة والعديد من العشيقات.

تذكرت أوجيني نبوءة المسيو ورث عن وقوعها في الحب في الشرق. سأعود. لم تكن لتثق مطلقاً برجل لدرجة أن تقوم بهكذا اختيار. لا ينبغي على الإمبراطورة مطلقاً أن تفقد رباطة جأشها.

كان تناولُ شاي ما بعد الظهر في الحرملك قد كبح خيالها، ووجدت نفسها تواجه تحدياً جديداً في كل مرة يقدَّم فيها لون جديد من الطعام.

«أخشى أن تكون السلطانة الأم قد سممت طعامي»، همست أوجيني بحيث يسمعها بعض المقربين إليها.

«سيكون من دواعي سروري تذوق طعامك سيدتي»، تطوعت الدمية التي اعتادت على القيام بهذه المهمة من أجل ايميه دو ريفيري المرة تلو الأخرى دون تردد.

«لا، أرجو من سيدتي أن تمنحني هذا الشرف»، قاطعها أحدهم ثم أكمل قائلاً: «اسمحي لي، سيدتي».

Twitter: @alqareah

ذلك الصوت! شعرت الدمية بدفءٍ يغمرها كلياً. رفعت رأسها والتقت عيناها بعيني كازيمير دو شاتونوف. لم يكن هناك شك، ليس هناك أدنى شك.

طار سهم كيوبيد في الفضاء، لقد تعرفا على بعضهما. كان حباً من النظرة الأولى، سلوان العرق البشري، حافِظُ الكون وروح الكائنات الحساسة، إنه الحب الرقيق.

«الدمية»، همس كازيمير.

اختفى العالم، لم تعد تفرّق بين الحلم والحقيقة. أخفضت عينيها ببطء، لكن لوحة الفسيفساء التجريدية على الحائط أصابتها بالدوار، ففقدت توازنها وسقطت على البلاط الآجري.

انحنى كازيمير دو شاتونوف باتجاهها بشكل غريزي ليمسك بها، لكن أوجيني هزت برأسها. يجب ألا يلمسها، فلمسة الرجل في هذا العالم قد تعني قبلة الموت.

تنحّى كازيمر جانباً ليمنح ذلك الشرف لرئيس المخصيين.

Twitter: @alqareah

35

استلقت الدمية في تلك الليلة في الغرفة المهواة في قصر بيليربي، وقد راودها الحلم ذاته ثانية حيث انسلت خلال الدهاليز ثم نزولاً إلى درج القصر النائم متجاوزة المخصيين الناعسين واتجهت نحو مقصورة العندليب.

كانت ليلة من عسل، والقمر بدر في السماء. والمرء يستطيع تقبيل الرطوبة في الهواء. في كل مكان كان الأفيون الأبيض يُنفث بترهل في النسيم الرقيق. وتدلى نِبات القوطيسوس مزهراً، كما التفَّتْ شجيرات الياسمين حول البناء الصغير الذي امتلأ بالرغبات.

استيقظ كازيمير دو شاتونوف في اللحظة نفسها وهو يحلم ذات الحلم. ثم ركض خلال بستان الزيزفون باتجاه المقصورة.

شاهد في المبنى خيالاً واقفاً وحيداً. خفق قلبه بشدة متوقعاً الأمر المحتوم بينما كان يصعد الدرج.

نادى قائلاً: «أيتها الدمية».

«أحبك».

«أحبك».

وجدت أيديهما وشفتاهما بعضهم البعض، وتحرك جسداهما الذين يشكل كل منهما امتداداً للآخر كما لو أنهما كائن واحد. ليس هناك من كذب ولا من حدود.

Twitter: @alqareah

36

كانت أوجيني مضطربة في تلك الليلة وقد أربكتها حدة العواطف التي أبداها العالم الشرقي. بدا كل شيء وكأنه يملك شهوات ذات فوارق دقيقة لا تكاد تُدرك، أو تلميحات بالعنف.

فَتحت أبواب شرفتها لتستنشق الهواء العليل. لمعَ الشاطئ المقابل لها بقصور السلطان: دولماباشه وسيرغان وبيلبيري وقصر النجوم والباب العالي وتوبكابي...

سمعت صوت خطوات، خفيفة. كان القمر ساطعاً لدرجة أنها غطت عينيها لتحميهما. ثم رأت شيئاً يعدو أسفل جادة المغنولية كالشبح وقد خمّنت من رقة حركاته بأنه امرأة محجبة.

تبعَ رجل ذلك الطريق في الاتجاه المعاكس.

علمت الإمبراطورة بأمرهما، فقد لاحظت الانجذاب الغامض بينهما في المأدبة.

نزلت الإمبراطورة باتجاه النافورة التي تفصل سكن النساء عن الرجال، في الوقت الذي وصل فيه كازيمير.

«هل تبحث عن بذورك في حديقة السلطان، كازيمير دو شاتونوف؟».

Twitter: @alqareah

«الفواكة فقط يا سيدتي».

«إنها إنسانة مميزة، أليس كذلك؟ أرغب في اصطحابها معي إلى باريس». كان السلطان سريع الاستجابة لطلباتها إلى أبعد مدى. وكان يتودد إليها، فلماذا يمنع عنها إذاً هدية كالدمية. «يجب ألا تضيع مواهبها هنا حيث لا يقدرونها حق قدرها».

«لا يمكنك زرع زهرة كهذه في غير تربتها، فهي ستذبل وتختفي في بلاطنا. إنها تفتقد القدرة على تدبير الدسائس، وسيتم التهامها»، قال كازيمير بحزم.

تعرفت أوجيني في عينيه على نظرة السمو. «عليك أن تتجاهل أوامر القلب يا كازيمير دو شاتونوف، فقد يكون ذلك كارثة. عليك أن تعلم، كما أعلم أنا شخصياً، أن اشتهاء ما هو ملك شخصي للسلطان ليس بالمديح بل هو ذم».

«إذاً، كلانا لا يحق لنا ذلك».

«هذا عمل الديبلوماسية».

«بل هذا عمل القدر يا سيدتي».

Twitter: @alqareah

37

اختفت الدمية في اليوم التالي.

أخبرت إحدى الخدم أوجيني بأنها سمعت قبل الفجر بقليل صوتاً شبيهاً بصوت طائر ليلي. رأت ظل رجال يقودون امرأة محجبة إلى قارب شراعي. قاومت المرأة ولكنهم أسكتوها وأخذوها بعيداً.

«أم المحجبات»، قالت أوجيني، «إنها تعاقبني».

ذرع كازيمير دو شاتونوف أرض الدهليز جيئة وذهاباً وهو يركز بشدة، لقد اختفت الدمية. اختفت في اللحظة التي وجدها.

«يبدو أن القدر قد خاننا كلينا يا كازيمير، ما الذي تنوي فعله الآن؟».

«سأفعل أي شيء ليستردني القدر».

Twitter: @alqareah

38

في كوخ الصيد قرب البحر الأسود، دعا السلطان السادة الفرنسيين لصيد الديوك البرية، فَوَلَعه بالطيور النادرة لم يكن خافياً على أحد.

وبما أنه رامٍ ماهر وكان قد تدرب على جميع أساليب الصيد، فقد استغل كازيمير مهارته إلى الدرجة القصوى، لأنه بحاجة لأن يكسب ثقة جلالته. فترك انطباعاً قوياً لدى هذا الأخير.

كان كازيمير يدرك جيداً بأنة من المحظور على الرجال أن يتحدثوا عن النساء في الشرق، حتى عندما يلفهم السديم ودخان البارود. لكن وجودهم ضمن حلقة غامضة كلعبة مشتركة يسمح بتجاوزٍ كهذا في تقاليدِ كلا البلدين.

«ما الذي يحدث للدمى الأحياء عندما يكبرن؟»، سأل كازيمير السلطان.

«يبقين مع ذلك ملكاً لسيدتهن».

«وماذا لو حدث مكروه لسيدتهن؟».

«عندها سيتم ترتيب زواج».

«دائماً؟».

Twitter: @alqareah

«تقريباً، إلّا في حالة خرق أحد القوانين».

إذاً، هذا ما حدث.

«مثل ماذا؟».

«مثل تعلم أشياء تنتمي لعالم الرجال».

«وماذا يحدث حينذاك؟».

«يُرْمين في قصر الدموع».

«وما هو قصر الدموع؟».

«إنه قصر غير المرغوب بهن».

«وما السبيل للخروج من قصر الدموع».

«تضحية كبيرة».

«ثم ماذا؟».

«توقَّفْ عن طرح أسئلة كهذه دو شاتونوف. أنت وثني، ولا يسمح لك بدخول جنتنا».

«ألا يعيش كل رجل عدة حيوات؟».

«نعم، ولكنه لا يملك إلّا قسمة واحدة».

Twitter: @alqareah

39

أخبر كازيمير دو شاتونوف الإمبراطورة بأن الدمية موجودة في قصر الدموع كما أعلمها بنيّته البقاء في القسطنطينية.

لم تبتسم أوجيني، كما لم تقدم حلاً لتهدئ من روعه.

قالت له: «جميعنا يقع في الحب، وكلنا يتألم من السقوط عندما تدركنا تضحيات الحب. ما الذي يبقى حينذاك؟ التحدي يا عزيزي كازيمير هو الهروب منه بينما لا تزال الجذوة متقدة».

Twitter: @alqareah

40

قبل رحيلهم إلى السويس، قدَّم كازيمير دو شاتونوف إلى أوجيني رسالة خاصة لتسلمها إلى فرديناند دو ليسيبس المقيم في مصر منتظراً قدوم الإمبراطورة. في داخل الظرف ظرفان آخران: أحدهما مُعنون إلى رجل في باريس في كيه أو فلور الذي يتاجر بالطيور النادرة والآخر إلى عشيقته ذات الشعر الأحمر والشفتين الصغيرتين الشهوانيتين والتي تعيش فوق قناطر القصر الملكي.

«ما الذي يجعلك واثقاً بأن الرسائل ستصل إلى الأشخاص المرسلة اليهم؟»، سألت أوجيني كازيمير. وكانت أوجيني تشبه أبو الهول.

«ليس اليقين هو ما يحرك الإرادة يا سيدتي».

Twitter: @alqareah

41

أبحر الصقر إلى الإسكندرية في التاسع عشر من تشرين الثاني في العاشرة صباحاً.

أمطرَ السلطان أوجيني بهدايا الوداع السخية، ومن ضمنها سيف مُذهَّب لزوجها، الإمبراطور نابليون الثالث. نُقِشت على السيف العبارة التالية: «هناك شيئان مهمين للإمبراطور: العدل والنصر. لكن المحيطين به فهموا المعنى المزدوج لهذه العبارة وتساءلوا فيما لو كان المقصود منها الإهانة. فكلمة «بيزفينك» في التركية التي تشبه كلمتي العدل والنصر تعني أيضاً «القواد».

وقف كازيمير على رصيف الميناء يراقب اليخت وهو يمخر العباب باتجاه بحر إيجه. وشعر بغربة كما لو كانت شخصيته التي عرفها فيما مضى تختفي مع اليخت.

وكان السلطان يراقب اليخت كذلك من حجرته في دولماباشه. وأصيب بكآبة عميقة بسبب كل شيء فقدَهُ. لقد فكر في احتجاز أوجيني، لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على التسامي بما أن التقاليد تمنع أخذ امرأة رجل آخر، إلّا في حالة الحرب طبعاً، فقد توهم عبد العزيز حرباً على مقاس نابليون.

Twitter: @alqareah

لم تصطحب أوجيني الدمية معها، فهي لم تجرؤ أن تتقدم إلى السلطان بهذا الطلب. فقد أدركت بنفاذ بصيرتها أن تحدِّي أم المحجبات سينجم عنه عواقب وخيمة.

وبدلاً من ذلك، أخذت أوجيني معها صوراً عن نوافذ بيليربي لتصنع نسخة طبق الأصل عنها لغرفة نومها في قصر تويلري. ورغبت أن تتذكر على الدوام شعورها عندما كانت تحدق في المنظر الرائع خلال البوسفور وتتذكر تلك المشاعر الملتهبة، والسلطان الشاعري لدرجة أنه صنع الألماس من الندى.

Twitter: @alqareah

42

يُقرأُ في كتاب توماس كوك للإعلان عن السياحة والرحلات، الأول من تموز عام 1869 ما يلي:

في السابع عشر من تشرين الثاني، احتُفلَ بنجاح أكثر الأعمال الهندسية براعة بحفل تدشين رائع، شارك فيه ممثلون عن معظم العائلات الملكية الأوروبية. ستكون هذه المناسبة مميزة... فكل ما له علاقة بالأعمال الحديثة، تم على أعلى المستويات، كما طُبعَ كتيب صغير يصف تنفيذ المشروع. فقلم فارس سانت ستوس يبهرنا بعبقرية العقل الموجه للمشروع: المسيو فرديناند دو ليسيبس الذي استطاع بمواظبته وجرأته وبُعدِ نظره أن يجعل هذا المشروع الذي حلمت به الأجيال حقيقة واقعة... هذا المشروع الذي يقرّب بين الشرق والغرب ويوحد بين حضارتي حقبتين مختلفتين.

Twitter: @alqareah

43

كان الخديوي إسماعيل، نائب الملك مضيفاً رائعاً. فلكي يحتفل باندماج المياه، نظم رحلات إلى الأهرامات ورحلات إلى النيل والأوبرا الغريبة. وقد خطط لافتتاح أوبرا عايدة ولكن الخديوي أسف لعدم تمكن فردي من إتمامها في الوقت المحدد، فاكتفى بتقديم ريغيليتو إلى الضيوف.

شارك الآلاف في حفلة التدشين السخية، ولم يجتمع هذا القدر من الرؤوس المتوَّجة في مكان واحد من قبل. وكعادتها، دخلت الإمبراطورة أوجيني بطريقتها المسرحية وقد ارتدت فستاناً أحمرَ مطرزاً بالألماس يخطف الأبصار (من تصميم المسيو ورث طبعاً). أما التنورة فقد رُفعت بعض الشيء وجُمعت في الخلف. وارتدت الإمبراطورة تحتها مشَدّاً للخصر بشكل الساعة الرملية وله شكله الخاص. وهكذا دشنت أوجيني بدورها التنورة المنتفخة التي كانت آخر صرعات الموضة لجميع السيدات، بما في ذلك الحرملك.

وكان من بين نخبة السيّاح، البطانة الملكية المؤلفة من فنانين مميزين قدِموا ليسجلوا «رحلة الحج العظيمة للحضارة» وذهبوا في رحلة أسفل النيل في منطقة البحيرة.

أبدى فرومانين، رسام الصحراء العظيم الملاحظة التالية: «دُعِيتُ

Twitter: @alqareah

في المساء لاحتساء الشاي مع الإمبراطورة». هذه المرأة اللطيفة بلا قلب. إنها فاتنة وصلبة وقاسية».

في السابع عشر من تشرين الثاني، افتُتِحت القناة للملاحة بين السويس وبورسعيد. تدفقت المياه باتجاه بعضها البعض وكأنهما عاشقان فُرِّقا عن بعضهما للأبد. قطعت يد أوجيني الجميلة الشريط الرمزي، في الوسط، وبذلك توحد البحران في عالم الأنوثة الأبدية.

قاد الصقر الموكب وقد جرى أسفل القناة العذراء، ثم تبعه الموكب المؤثر المؤلف من التجار والسفن الحربية. وفي المساء، أرسوا المرساة في الإسماعيلية في بحيرة التمساح، حيث أعد الخديوي احتفالات أكثر غرابة.

وفي اليوم التالي، وصلوا إلى بحيرات بيتر. وانجرف الأسطول الصغير من السويس إلى البحر الأحمر.

«قاتلنا، نظمنا، خلقنا، أنجزنا، أدركنا، تصرفنا، ثابرنا، تقدمنا، نجحنا»، دوَّى فرديناند دو ليسيبس بجهيُر قوي. «لا شيء مستحيل، لا شيء يستطيع إيقافنا. وفي النهاية لا شيء يهم سوى النتيجة النهائية».

اتكأت أوجيني على حاجز الصقر وقد أمسكت بمظلة شمسية في يدها التي لبست القفازات. ثم فكرت أن هذا المشروع ما كان ليتم لولا تدخلها من وراء الستار. لقد كان لها الفضل في نجاح دوليسيبس، وكما تنبؤوا لها، فقد أثارت اضطراباً في هذا العالم.

إن ثقب البرزخ لا يلغي رحلة الأربعة آلاف ميل حول إفريقيا فحسب، ولكنه يقدم تقليداً بحرياً عظيماً أصبح جزءاً من الإنسانية لحوالي خمسة آلاف عام.

Twitter: @alqareah

الجزء الثالث

الرغبة في العالم هي النار
والحصول عليه هو الدخان
«مثلٌ غجري»

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

44

سافر كازيمير دو شاتونوف جنوباً إلى سميرنا حيث كاد أن يختفي منذ فترة وجيزة. كم كان قريباً إلى حلمه حينذاك. لقد تقبّل فكرة أن هناك شيئاً أقوى من إرادته.

ومن سميرنا، غامر كازيمير بولوجه إلى داخل منطقة بحر إيجه حيث انتشرت آلاف من كروم العنب العشوائية صعوداً إلى التلال المستوية حيث وثب ذات يوم ديونيس وخُلّانه وهم جزلون. كانت تلك هي كروم العنب نفسها التي حملها الأتروريون(*) إلى الغرب.

تفاوض كازيمير مع المربين المحليين للحصول على أفضل الجذور القوية والمرنة بشكلٍ كافٍ لتطعيم جذوره واستعادة حيويتها بهدف مكافحة قمل النبات.

وشحن كازيمير من مرفأ سميرنا صناديق هذه الجذور الغريبة الملتوية والتي ستتجه إلى مرسيليا ثم إلى مستودع الذكريات في شاتونوف دو باب وقد تضمنت تعليمات واضحة للمشرف على المستودع حول أفضل طريقة للتطعيم.

(*) أتروري: منسوب إلى أترويا وهي بلاد قديمة في غربي ايطاليا (المورد)

Twitter: @alqareah

كما بعث كازيمير أيضاً بثلاثة جِمال صغيرة، واحد لكل من أنطوان وأندريه وألفونس (وكانت الجِمال التي يصادفها المرء في جنوبي فرنسا من الفصيلة نفسها). وأرسل إلى اسبرانس بذور فأرة الطيب: أدونيس للذكريات الحزينة، والتوت للندم والعنصل الأزرق(*) للغفران والنسيان. وقد جمع ذلك كله بحزنٍ لعلمه بأنها لن تفهم لغة الزهور ولكن الزهور تفهم لغتها.

(*) العنصل: نبات من الفصيلة الزنبقية. (المورد).

Twitter: @alqareah

45

في قصر الدموع، ظلَّ ذهن الدمية مشغولاً بلا هواداة بالرجل الذي صادفته في الحديقة. هل رأته حقاً؟ أم أنه كان حُلماً ضمن حلم؟ كانت اللحظات السريعة التي تقاسماها سوية والتي تتخطى حدود الأحلام تُقوّي من عزيمتها.

سألت النساء الأخريات: «هل غادرتُ القصرَ؟».

أجبنها بأن غرفتها كانت فارغةً لبضع ليالٍ ولكنهن لم يعلمن بمكان ذهابها.

أخبرتهن الدمية حينذاك بسرها رغم خطورة الإفصاح عن مثل هذه الأشياء. حدثتهن عن الإمبراطورة الفرنسية والسيدات الأنيقات بملابسهن الجميلة وسلسلة الدوائر المضحكة التي يرتدينها تحت تنورتهن لتوسيعها والتي تدعى بالقرينولات. كما حدثتهن عن السادة بالبنطلونات القصيرة لغاية الركبة. كذلك أخبرتهن الدمية عن الفستان ذي اللون الأزرق الملكي الذي سمحت لها الإمبراطورة بارتدائه، وعن مأدبة السلطان وقصر الرخام الذي وضعه السلطان تحت تصرف الإمبراطورة وغصن الزمرد ذي الدموع الماسية، كذلك عن زراعتها للنرجس حول قبر ايميه دو ريفيري وعن صفع السلطانة الأم للإمبراطورة وعن إغمائها شخصياً.

Twitter: @alqareah

وأخيراً تحدثت الدمية عن الرجل الذي لم تعرف اسمه حتى الآن ولكنه يزورها في أحلامها كل ليلة.

ذرفت الدميةُ الدموعَ حزناً على الحياة التي لن يقدر لها أن تحظى بها. بكت النساء الأخريات أيضاً وطلبن إليها أن تخبرهن مرة أخرى عن القبلة وعن لمسة الرجل التي لم يجربنها من قبل ولن يُقدَّر لهن ذلك أيضاً. لن يحصل لهن ذلك في هذه الحياة. القسمة هي القسمة، وهي مكتوبة على جبين المرء.

وفي كل كلمة نطقتها، ظهر وجه محبوبها في عينيها وفي خيالها، كما تعانقا في مقصورة العندليب. تخلّت عنها جميع الأفكار الأخرى لتركز على هذه اللحظة وحدها. تجمدت جميع الكلمات الأخرى في رأسها باستثناء كلمة أحبك، أحبك، وهي الكلمة الوحيدة التي تبادلاها. غنَّت هذه الكلمة المرة تلو الأخرى حتى أضفى عليها ترديدها الراحة لتغرق بعدها في النوم وتستعيد الحلم ذاته.

تكيّفت الدمية بالتدريج مع فكرة العيش في قصر الدموع، حياة بلا نور. ولكن الآن، كانت النسوة الأخريات في الحجرات الفارغة في القصر يتمتمن: أحبك، أحبك، كذلك همس المخصيون في مساكنهم بأصواتهم المصطنعة: أحبك، أحبك.

Twitter: @alqareah

46

عاد كازيمير دو شاتونوف من سميرنا إلى القسطنطينية، واستأجر منزلاً صغيراً في طربيا يطل على البوسفور.

وفي كل يوم، كان كازيمير يجلس القرفصاء على الأرض مقابل معلِّم صوفي يعلمه القرآن في جامع النجوم. صمَّم كازيمير على فك شيفرة هذه اللغة المعقدة، وردد تعويذة بلغة لا يعرفها، ولكنه التقط معانيها بذكائه الحاد. ولم يشعر حتى لوهلة بأن ما يفعله سخيفاً، فالتناقض كان السمة الغالبة على حياته.

خلّصه المعلم الصوفي من أحزانه الماضية ومن قناعاته الكاثوليكية والاحتفالات الكنسية. أشعل المعلم الصوفي البخور وأنشد البركات التي خلّصت كازيمير من حياته السابقة حتى من اسمه السابق. وخلال وقت وجيز، استطاع هذا الفرنسي التحدث بلغة العثمانيين بلهجة لا يشوبها الخطأ كما استطاع قراءة القرآن.

تخلص كازيمير من ثيابه الفاخرة ليرتدي عِوضاً عنها الستامبولين والعباءة السوداء والطربوش ذا الشرابة الحمراء. كما أنبت الفرنسي شاربه كالسادة الأتراك وارتاد المقاهي حيث لعب النرد مع المحليين ودخن النارجيلة، وتعلم كيفية الغناء بالطبقة المنخفضة.

Twitter: @alqareah

كذلك أعاد كازيمير تكوين شخصيته كالممثل البارع.

أصبح اسمه الآن قاسم بيه، وهو الاسم الذي أطلقه عليه معلمه الصوفي ليكمل تعليمه له. ثم اختفى الرجل الذي كان يدعى كازيمير دو شاتونوف في عالم الخيال.

جلس قاسم بيه وكتب رسالة إلى اسبرانس وأنطوان وأندريه وألفونس. كيف يشرح لهم هَجْرَهُ إياهم؟ لم يستطع كتابة أية كلمة، فقد بدأ لتوه بنسيان وجوههم ولم يبقَ من ذكراهم سوى أصواتٍ تردَّدَ صداها الأجوف في ذاكرته.

Twitter: @alqareah

47

وصلت الطيور. أرسل التاجر في باريس إلى قاسم بيه زوجاً من كل نوع: من الصيني والمالايا والدجاج الصيني وطيور شانغاي والغجر والجاوي(*) إلى الهفهورن واللاموناس والكريفورس والطيور المتسلقة والقنزعة والتدرج الذهبي واللفهورن الأبيض ودجاج رود آيلاند الأحمر والبولندي والهامبرغز والاسباني الأسود والبنطم(**) والمينورقية(***) والأندلسية والسومطرية والسلطانة بالطبع.

وبوجود الأقفاص في الباخرة، ذهب قاسم بيه إلى قصر النجوم. وكان الجميع يعلم بولع السلطان بالدجاج النادر. بالإضافة إلى ذلك، أفادت الشائعات بأن المهتدي إلى الدين الاسلامي يكافئ الرجال الذين يشقُّون له طريقه.

كان عبد العزيز جالساً على كرسي لويس الرابع عشر عندما دخل قاسم بيه إلى الغرفة الملكية المظلمة بفعل الستائر المسدلة. بدا

(*) الجاوي: طير داجن. (المورد).

(**) البنطم: دجاج صغير الحجم (المورد).

(***) المينورقية: سلالة من الدجاج منسوبة إلى مينورقة، إحدى جزر الباليار. (المورد).

Twitter: @alqareah

السلطان كئيباً وصموتاً وكأنه تحول إلى تمثال بفعل مرض العصر، وقد تذبذب بين سأم الروح وتعاسة الإدراك. سيتذكّر قاسم بيه فيما بعد بأن السلطان بدا كما لو أنه سيطرت عليه هواجس من يتنبأ بالمصير المأساوي الذي كان ينتظره.

بدا عبد العزيز كما لو كان برمائياً غافياً ولكنه لم يكن كذلك بالفعل، وهو يحدق بالسيد الفرنسي العاطفي الذي ذهب للصيد معه ذات مرة، الرجل نفسه الذي تاق بشدة للحصول على الدمية في قصر الدموع. يا لحماقة الحب، فما الذي يجبر هذا الوثني على التنكر بالستامبولين كما لو كان أحد رجالات بلاطه؟ ومع ذلك، فالرجل الماثل أمامه لايزال ذكرى من أوجيني التي تلاشت بسرعة، تلك المخلوقة التي رغب بها ولم يحصل عليها.

«لقد أنجزت تضحيتي الكبيرة يا جلالة السلطان. أنا الآن أدعى قاسم بيه»، قال كازيمير للسلطان باللغة التركية.

«وقد فعلت ذلك بوقت قصير، ولكن التحدث ببضع كلمات من لغتنا وارتداء ثيابنا لا يؤهلانك لتصبح واحداً منا يا شاتونوف».

«لقد صرت كلياً واحداً منكم، وسيزداد ذلك بمرور الوقت ياسيدي. إنها قسمتي».

«إن بقيت هنا فلن يمكنك مطلقاً الرجوع إلى بلدك يا شاتونوف. فالرجل يُحكم عليه بالموت كما تقتضي القوانين المقدسة إن ارتد إلى المسيحية. فبإسلامك، لن تفقد فقط عقيدتك السابقة، بل أيضاً اسمك وعائلتك وبلدك. لن تصبح مطلقاً كسابق عهدك».

«أنا مدرك لذلك».

Twitter: @alqareah

«على المرء ألَّا يتخذ قراراً قد يندم عليه فيما بعد».

«لكننا حينذاك سنقع في شرك عالم بلا أمل».

«أخبرني إذاً عن الهدف الحقيقي لزيارتك».

بحث كازيمير داخل سترته وأخرج علبة خضراء مطرزة بالخزامى: «منذ عدة سنوات، وجدت هذا في متجر للتحف في باريس».

فتح السلطان العلبة الرقيقة ونظر إلى الصورة المنمنمة للمرأة الشابة ذات التقاطيع المرسومة بتناغم، كما نظر إلى عينها الزرقاء والأخرى الصفراء.

حسد السلطان هذا الفرنسي لتصميمه وللحرية التي منحت له ليفعل ذلك. تمعَّن في الصورة لفترة طويلة، ثم وضعها في العلبة وأعادها إلى قاسم بيه.

«أنا رجل أحترم الوعود التي أقطعها، سأمنحك ما تتمناه. وكتعبير عن إجلالي لإمبراطورتك المبجلة سأمنحك قطعة أرض في مقدونيا كهدية زواج. لكنني أحذِّرك بأنه لا يوجد في الأرض سوى كوخ صيد. زُرعَت هناك عشرة هكتارات من الكروم منذ عدة سنوات ولكنها لم تعطِ أية قطرة من النبيذ. قيل لي بأنك أستاذ في صناعة الخمور. أرني يا قاسم بيه ما الذي باستطاعتك فعله بفضل براعتك وخيالك. حوِّل العنب إلى ذهب. حينها سيكون بمقدوري أخذك على محمل الجد».

وقف السلطان على حين غرة وفتحَ الأبواب الفرنسية المجاورة لصالة الاستقبال حيث وجد هناك حشداً من الدجاج والديوك تطلق أصواتاً حادة وتصفق بأجنحتها وقد تجمعت حول قدمي السلطان.

Twitter: @alqareah

أشرق وجه ذلك الأخير كالأطفال. كان باستطاعته أن يلعب معهم لعبة الجنود ويقدم لهم التشريفات. ثم أمسك بديك أحمر ضخم وعلق على رقبته ميدالية البسالة.

راقبَهُ قاسم بيه.

«لقد دمروا معبداً صوفياً لتشييد هذا القصر، أما الآن، فيخبرني الأئمة بأن ذلك سيجلب لي الحظ العاثر»، أخبر السلطان الطائر الخائف. «أنا أؤمن بنذر كهذا، فماذا عنك؟ أينبغي لنا التفكير بالانتقال لقصر آخر يا جلالة السلطان؟».

لم تكن الشائعات التي سَرَتْ عن زوال القوى العقلية للسلطان غير مبررة، لكن قاسم بيه كان قد فاز بجائزته.

Twitter: @alqareah

48

في تلك الليلة، راود الدمية حلم آخر. كانت السلطانة الأم قد «أرسلتهم»، ليأخذوها بعيداً. كانت ترتدي ثياب الزفاف الحمراء. انتظرتها عربة خارج قصر الدموع وقد قعقعت بمحاذاة أسوار المدينة باتجاه الأبراج السبعة.

كان الظلام ما يزال حالكاً عندما استيقظت، وكان المؤذن يؤذن صلاة الفجر. سيطر عليها شعور من كان قد رأى ذلك المشهد من قبل، وأنها قد عاشته سابقاً. كانت تعلم أن الأبراج السبعة هي السجن الإمبراطوري الذي لا مهرب منه، لكنها أحست بسلام غير اعتيادي.

مشت الهوينى باتجاه الحمام لتتبع الطقوس وكأنها الخروف الذي سيُضحى به. ثم دهنت جسدها بالمرهم الذي ركَّبته بنفسها من الأعشاب ورائحة الورود. وبشكل احتفالي، ارتدت الفستان الأحمر الذي أعطتها اياه ايميه دو ريفيري، ثم وضعت العقد الزمردي والأقراط المصنوعة من حجر الأوبال الملتهب الذي تزينت به سيدتها فيما مضى.

وكما حذَّرها الحلم، أخبرها المخصي «أنهم» قد قدِموا لإحضارها. قبَّلت صديقاتها وودعتهم بعد أن أعطتهم كل ما تملك.

تناثر على الأرض سيلٌ من الدموع تبعها خلال ممرات قصر

Twitter: @alqareah

الدموع الباردة، ولكنها شعرت مرة أخرى برغبة في الركض خلال نفقٍ حريريٍّ كما لو أنها انزلقت خلال شرنقة نصف شفافة.

انتظرتها عربة في بوابة السعادة. ساعدها المخصي على الصعود، ثم أغلق الباب خلفها.

Twitter: @alqareah

49

جلجلت العربة في الشوارع المعبّدة بالحصى متجهة نحو أسوار المدينة الكبيرة. نزلت في البداية باتجاه شارع سيراغليو الكبير، ثم اجتازت ساحة سانت صوفيا والجامع الأزرق وحمامات آركاديوس وتوقفت أخيراً قبل المرسح(*) بقليل.

صرخَ رجل من الداخل قائلاً: «أكمل السير».

وحالما وصلت العربة إلى أعمدة قسطنطين المحروقة وأنوار القبة العثمانية، انحدرت أسفل الهضبة ودخلت إلى وادي الجوامع وهي تعدو.

وفي قناة جر المياه المؤلفة من صفين من الأقواس الدقيقة التي تدلت عليها الكروم في فسطونات(**) جميلة نزولاً باتجاه مجموعة من المنازل العشوائية، مسح الحوذي حاجبيه ووضع قبعته بين قدميه ثم أبطأ سيره.

تدحرجت العربة الآن بمحاذاة حافة الماء وطريق القاطرة المكسو

(*) المرسح: مضمار بيضوي الشكل لسباق الخيول والعربات في بلاد الإغريق قديماً. (المغني الأكبر).

(**) فسطون: حبل من زهور أو زينة بين نقطتين. (المورد).

Twitter: @alqareah

بالحجارة الحادة واتجهت نحو بازار العبد الواقع وراء ساحة المذبحة حيث وقعت مجزرة الإنكشارية.

ثم دارت العربة وراء عصبة السبعة وانعطفت فجأة إلى الجسر الذي يقطع نهر ليسوس باتجاه أيوب. ثم توقفت العربة أمام حدائق أورتاسيلار.

«أكمل سيرك»، أمر الصوت الحوذي ثانية.

صفر الحوذي لأحصنته فهرولت باتجاه جادة الأشجار المنبسطة التي قادتهم إلى حي الأقليات في القسطنطينية، المليء بالخراب والدمار والتعاسة. ولم تكد العربة تصل إلى بلاشارنيا حيث امتدت أسوار الأبراج السبعة من القرن الذهبي قاطعاً بحر مرمرة، حتى كاد الحوذي يبكي من شدة العطش والإعياء.

نظر الناس في الشارع بفضول إلى العربة التي أُسدلت ستارة على نافذتها الشبكية وأُغلقت بإحكام يفوق أقفال القبر. وفي نقطة ما، أزاحت يد حساسة الستار وألقت بتويجات بيضاء تناثرت في الريح وطارت بعيداً كفراشات فوق حقل من الخشخاش.

سمع السائق صوت رجل:

«أحبكِ».

«أحبكَ»، رددت المرأة قائلة.

وبينما غرقت الشمس في بوابة أدريانبول، توقفت العربة وخرج منها رجل قدَّمَ ساعده لامرأة محجبة ترتدي ثوب الزفاف الأحمر.

نظرت المرأة إليه بعينين ولهتين وسألته: «ما اسمك؟».

Twitter: @alqareah

50

انضم قاسم بيه والدمية إلى قافلة جِمال من خلال طريق روميليا، وكان قاسم بيه قد عقد عزمه على إشباع رغبات الدمية التي طالما تكررت في أحلامها عن الجِمال الطائرة والتي صارت جزءاً مهماً من أسطورتهما المشتركة.

جهدا معاً خلال امتداد حقل عباد الشمس في ثراس وهم في طريقهم إلى كاتالاسا وديموتيكا ثم إلى أراضٍ يونانية قاحلة قبل أن يكملا المسير إلى دراما وساراي ويقطعا نهر فاردار ليخترقا تدريجياً أراضي مقدونيا المنخفضة والغاوية. وفي الليل، أخذا قسطاً من الراحة في خاناتٍ وفنادقَ تثير الريبةَ، حيث كان كازيمير مستيقظاً للمراقبة ويده على خنجره بينما تتظاهر الدمية بالنوم.

وكان العذاب المبهج الذي يُحتِّم عليهما ضبط النفس رغم قربهما من بعضهما البعض يُذكي نار شوقهما. أما جسداهما فيلتهبان ويفقدان صبرهما بينما يتلهفان للّحظة التي تجمعهما وحدهما.

وبعد أسبوعين، اجتازا نهر كرنا ووصلا إلى بيرليبي.

Twitter: @alqareah

51

كانت الرياح شحيحة والتربة ضعيفة ومليئة بالحجارة، بينما الهواء يلف حاملاً معه غيوم الغبار. ولم تَعِدْ كروم العنب الحزينة والمتدلية بأي محصول. كان كل شيء بلون الأرض البني الداكن، أي بلا لون.

قتل قاسم بيه خنزيراً برياً هاجمهما، ليصبح قوت فصل الشتاء، ثم بذل جهده لتدفئة نفسه والدِمية فقطعَ الأخشابَ وعزلَ الكوخَ بلحاء خشب البتولا. أما الدمية فجمعتِ النباتات وسحرت عالم النباتات بقصصها.

كان العاشقان ينالان كفايتهما من بعضهما وقد تمكنا من تجاوز محنة الشتاء القاسي بفضل إتمام الزواج بطريقة لم يحلما بها في هذه الحياة.

كانا يقضيان ساعات لامتناهية في عناق بعضهما البعض، فلم يحدث قط أن توحد كائنان واندمجا مع بعضهما بهذه القوة. كما كانت كل لحظة بالنسبة إليهما كالليلة الأولى التي حلما فيها ببعضهما وقد جنحا في حلقات الرغبة دخولاً وخروجاً في العوالم المحرمة وكأنهما خضعا لسيطرة لحن الرقصة البدائية.

Twitter: @alqareah

كانت أية لحظة يقضيانها بعيداً عن بعضهما بمثابة العذاب حتى لو كانا نائمين. فتعلم كلاهما تدريجياً الدخول في أحلام الآخر، واستلقيا ببهجة في شرك الريف المهجور الذي تطفو عليه الغيوم المغبرة الدّوّامة، وقد تشاركا الحلم تلو الآخر وطاردا بعضهما خلال بهو من المرايا التي بدت وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية.

لقد بدأا حلمها الثنائي.

Twitter: @alqareah

52

لم يسمح انجذاب الدمية لحصاد ثمار الأرض بقتل الماعز الجبلي والحمام البري من أجل الطعام. وتاقت الدمية للبندورة الكثيرة العصارة والباذنجان المر وأشجار الزيتون التي اعتادت عليها في الماضي.

وفي كل صباح، تسافر الدمية إلى البحيرة الصامتة لتحضر معها الطحالب والأصداف التي زرعتها في الأرض العنيدة، ودفنت البذور هنا وهناك. وبدلوٍ إثر الآخر، ملأت البئر الجاف. كما كانت الدمية تتحدث بلا توقف مع أرواح النباتات التي لم يرها أحد سواها.

وفي الربيع، هطلت الأمطار وجلبت معها خصوبة غير متوقعة. فانشقت البذور ونمت لتصبح أغصاناً مزدوجة ثم تكاثرت. تفتحت الأزهار وتبرعمت الأغصان ونمت الشجيرات والفواكة.

راقب قاسم بيه الدمية وهي تتحدث إلى النباتات وتسحرها كما لو كانت ثعابين. كما شاهدها وهي تسدل السرخس وتدور حول نفسها بعنف في الغابات وكأن قوة غير مرئية قد استحوذت عليها. أشعره ذلك كله بالإثارة وبالخوف في الوقت ذاته.

وفي نهاية الفصل، اخضوضر الوادي. وكان بإمكانهما العيش بهناء بوجود كل هذه الغلّة، ولكن قاسم بيه لم يكن مطلقاً رجلاً ذا

Twitter: @alqareah

ذوق سهل. وبدأ بالتحديق في الكروم الرخوة ذات التغذية الناقصة.

تخيَّلَ قاسم بيه كيف يمكن الاستفادة من مواهب الدمية في البستنة.

قال قاسم بيه: «سنصنع الخمر».

«ما هو الخمر»، سألت الدمية.

«إنه دم الآلهة»، ثم أشار إلى الكروم التي تنازع للبقاء وقال: «إن استطعنا فقط إيجاد طريقة لإحياء تلك الكروم».

Twitter: @alqareah

53

قضت الدمية ساعات طويلة ولامتناهية في الكروم وهي تتحادث بِودٍّ مع كل كرمة وكأنها طفلتها. ولم تشعر بمثل تلك البهجة منذ كانت تنفض الغبار عن الكتب في المكتبة وتغرق في صفحاتها. نظر إليها قاسم بيه بحيرة، ولم يكن يدري ما إذا كانت ساحرة أم مجنونة.

حدّثها قاسم بيه عن التربة وزاوية الشمس والمصادفات والمخاطر المتعلقة بالجليد والمطر. كما أخبرها عن عصر العنب وفن التخمير وراقب دهشتها وهي تتنزه في الممشى وتغني.

جعل ذلك كله قاسم بيه يبتسم. لم يربطها شيء بكلمة العنب ولكنها ملكتها كما ملكت قاسم بيه. انضم هذا الأخير إلى غنائها وتزامنت حركة شفاههما معاً وتردَّدَ دوي غنائهما أسفل الوادي تحت أقدامهما.

عمل قاسم بيه ليلاً ونهاراً مع صانعي البراميل المحليين لبناء براميل من السنديان. وراقب إنتاج المحصول وتذوق مقدار حموضتها ومستوى السكر والـ بي إتش PH والفينول(*)، وقد تجاوب الطقس بتناغم مثالي.

(*) الفينول: حامض الكربوليك.

Twitter: @alqareah

امتدت الهكتارات من الكروم أسفل الهضبة الصغيرة وصولاً إلى البحيرة الصامتة. وارتفعت الأغصان كما لو كانت منغمسة في رقصة شهوانية، وقد لفّت أذرعها بشكل دائري من أشكال الآرابيسك.

وأخيراً، تفتحت الأغصان عن أوراق من اللون الأخضر الباهر. وفي الخريف، وعندما كان السفرجل الأحمر القاني الملتهب يسلب ألبابهما، كان قاسم بيه والدمية يغنيان بنشوة وهما يركضان بمحاذاة الكروم ويسقطان على الأرض ويتدحرجان فوق بعضهما البعض ضاحكين بجنون وقد ضاعا في الأرض ويداهما وشفتاهما تبحث عن خصوبة أعمق.

Twitter: @alqareah

54

جلس قاسم بيه على الشرفة ليحتسي حصيلة محصوله الأول من الأورينتيلا بمادَّته الناعمة وسحره الحيوي وحموضته اللاذعة وشذاه الحاد. تذكَّر رائحة وطعم شاتونوف دو باب ومستودع الذكريات وأندريه وأنطوان وألفونس. سمع أصواتهم، ولوهلةٍ قصيرة ظهرت حتى صورهم.

تساءل فيما لو كانوا قد استلموا هداياه التي أرسلها من سميرنا وبذور الورود والجِمال وجذور التطعيم. كما تساءل فيما لو كانت كروم شاتونوف دو باب قد نمت. ومع ذلك لم يندم قاسم بيه على الماضي كما لم يشعر بالخوف من المستقبل.

Twitter: @alqareah

55

عندما كان عبد العزيز أميراً إمبراطورياً، صرعَ ثوراً بضربة واحدة وقال: «بهذه الطريقة سأدمر الجهل». توقع الناس الكثير منه، ولكن مثالية السلطان لم تدم طويلاً للأسف. قال الناس: «كان السلطان محمد متعطشاً للدماء والسلطان عبد المجيد يعشق النساء، أما السلطان عبد العزيز فمغرم بالذهب».

حدث ذلك تدريجياً، بعد أن تعرف على روائع أوروبا. وصار ينفق الأموال بإسراف غير مسبوق. طلب السلطان دزينة من البيانوهات من انكلترا وشدَّها على ظهور الخدم لتتبعه الموسيقى حيثما مشى. كما طلب عبد العزيز القاطرات بالرغم من عدم وجود سكك حديدية لتسير عليها.

وامتلأت قصوره بجلبة الألعاب الميكانيكية والساعات والطيور الناطقة. فتارة تسيطر عليه الرغبة في جمع النمور وفي اليوم التالي يرغب بالزرافات فيرسل العملاء إلى الهند أو أفريقيا للحصول عليها. وكان يستمتع بلعبة الحرب مع جنوده الحقيقيين ويبلغ حد أن يحول القصر إلى ساحة معارك.

وعندما التقى موظفاً مدنياً يدعى عزيز، شعر بالغضب لأن لشخصٍ آخرَ غيره اسمه نفسه، فأمر جميع الرجال الذين يدعون بعبد

Twitter: @alqareah

العزيز أن يغيروا اسمهم. كما أعاد كتابة الكتب المدرسية فحذف جميع الهزائم التركية والثورة الفرنسية كما أزال أية إشارة إلى المسيحية.

لم يمر يوم دون أن يُسمع بنادرة عن سخط السلطان أو غضبه العارم لأن وزير المالية رفض تزويده بالأموال التي يطلبها. وقد بالغ الناس في الحكايا عن غرابة أطواره التي تناقلتها آلاف من الألسن في البلاط والتي نسجت شيئاً فشيئاً خيوط المؤامرة.

Twitter: @alqareah

56

في قصر التويلري، قدَّمَ وزير الداخلية بوقار برقية إلى الإمبراطورة أوجيني، ثم غادر الغرفة بهدوء.

قرأت أوجيني البرقية بتعابير فارغة على وجهها وقد بدت وكأن الزمن نفسه قد توقف ثم انفجرت في نوبة من الغضب العارم.

كان زوجها لويس نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا وحفيد بونابرت قد هُزِمَ في سيدان واستسلم مع ثمانين ألفاً من رجاله. وقد احتُجز كسجين حرب في قلعة فيلهلمشوله قرب كاسل.

وفي تلك اللحظة، كبحت أوجيني غضبها لخيانات الإمبراطور لها التي لا تنتهي، وأطلقت عقال خيباتها الأخرى التي سببها لها زوجها. بدت وكأن حجمها يكبر تدريجياً كالممثلة العظيمة التي وصلت لمرحلة ذروة الأداء.

لكن لم يكن هناك من جمهور.

كانت لحظة الحقيقة.

واستعيدت الجمهورية الجديدة في مكان ليس بالبعيد عن هناك، في السيتي هول.

أما خارج التويلري، فقد احتشد جمع كبير وصاخب. خلع

Twitter: @alqareah

الدرابزون وحطم الصقر الذهبي على السارية الإمبراطورية وكذلك حرف النون الذي يرمز لنابليون وللإمبراطورية الثانية تحول إلى أشلاء. وصرخت العامة مطالبة الإمبراطورة بالرحيل.

وفي الرابع من أيلول عام 1870، زار الإمبراطورة في قصر التويلري ثلاثة نواب من الهيئة التشريعية وحثُّوها على التنازل عن العرش.

أجابت الإمبراطورة: «ليست السلطة ملكي لكي أستغني عنها. لن أتنازل عن العرش مطلقاً».

هرب الجميع من القصر باستثناء عدد من أصدقاء أوجيني المقربين، لكن الإمبراطورة رفضت الرحيل واعترفت قائلة: «لا أخاف من شيء إلّا الوقوع بين أيدي هؤلاء الحيوانات الذين سيلوّثون ساعاتي الأخيرة بشئ مشين وبشع».

ثم سمعت أوجيني الحشوْد يصرخون ويتفوهون بكلمات فاحشة، فتخيّلتهم يجزون شعرها ويرفعون تنورتها ويبولون عليها. ورأت كذلك رؤوساً دامية تسقط في السلال. وكان هاجسها المروع بماري أنطوانيت التي احتفظت بتمثال نصفي لها في غرفة نومها قد بلغ ذروته.

كان التويلري هو ذات القصر الذي أُجبرت فيه ماري أنطوانيت على تحمُّل ضيافة عامة الشعب بعد اجتياحهم للباستيل. تخيَّلت أوجيني الملكة التعسة التي تفحَّصها الجميع وكأنها حيوان في حديقة الحيوانات إلى أن أتى شهر آب القَدَري حيث قرعت الأجراس في جميع أحياء الطبقات العاملة وانقضت العامة على قصر تويلري. دافع الحراس السويسريون عن ملكتهم حتى النهاية، ولكن بلا جدوى (هل

Twitter: @alqareah

سيفعل حراسها الشيء ذاته؟). وبعد نهبهم للقصر، هجر العامة حديقة ماري أنطوانيت الهادئة. وحدَّقت التماثيل العارية بوجوه خالية من التعابير بآلاف الجثث.

استسلمت أوجيني عند حلول الظلام بسبب انهاكها معنوياً.

وغادرت الإمبراطورة قصر التويلري ولم تأخذ معها شيئاً باستثناء حقيبة يدها، وقد خبّأت نفسها بالحجاب الثقيل ورمت بمعطف السفر الفضفاف فوق فستانها الأسود المصنوع من الكاشمير والذي لم تبدله منذ أيام.

لم تأخذ مالاً أو نقوداً، وأصبح عليها من الآن فصاعداً الاعتماد على كَرَمِ الغرباء.

Twitter: @alqareah

57

عبق الهواء برائحة الحرب، وتحدث الجميع عن الفوائد التي ستُجنى. لكن قاسم بيه كان مؤمناً بكرومه، فرهن أرضه بهدف توسيعها.

قالت له الدمية: «على المرء ألا يخاطر مطلقاً بهدية السلطان. إنه تدنيس للمقدسات، وهو بمثابة نذير شؤم كقتل الملك».

كيف استطاعت الدمية التنبؤ بمجريات الأحداث؟

وصلتهم أنباء تفيد بأن أوجيني والإمبراطور المخلوع يعيشان الآن في المنفى في انكلترا وأن قصر التويلري قد هُجِر. شكر قاسم بيه حظه السعيد لأنه أصبح رجلاً ريفياً بسيطاً، محصَّناً ضد المكائد ويتنعم بعروس أحلامه التي بدت وكأنها تعزله عن جميع أشكال الكوارث.

لكن القدر تدخل ثانية. ففي بداية الربيع، هجمت عاصفة مفاجئة من البرد وجرَّدت الكروم من أجزائها العلوية. وفي نهاية الربيع، فَقَدَ قاسم بيه والدمية كرومهما. وطالب الدائنون بكل شيء ولم يتركا للزوجين إلّا كوخ الصيد القديم الذي أحاطت به الأرض التي صارت بوراً وقاحلة كما وجداها عندما وطئتها أقدامهما للمرة الأولى.

Twitter: @alqareah

58

في الثلاثين من أيار عام 1876، انطلق وزير الحربية العثماني في مركب شراعي خلال البوسفور باتجاه القصر الأبيض وقد حمل معه فتوى من شيخ الإسلام، الزعيم الروحي الرسمي الأعلى للإمبراطورية. وقد أجازت الفتوى بخلع السلطان بسبب «الجنون واستعمال الدخل الحكومي في نفقاته الشخصية وارتكاب أفعال تضر بالدولة والمجتمع».

كانت الرياح تعصف والأمواج ترتطم بأدراج القصر عندما رسا مركب الوزير على الواجهة المائية الرخامية. أحضر هذا الأخير معه تعزيزات مؤلفة من كتيبتين في الجزء البري ومركب بحرية في البوسفور أحاطت بقصر دولماباشه.

كان السلطان مستلقياً في سريره الضخم المُذهَّب مع الشركسية الجميلة ميهري، محظيته المفضلة ذات السبعة عشر ربيعاً، عندما سُمعت أولى الطلقات من الحدائق المتلألئة بالمطر.

شق الوزير طريقه نحو غرفة العرش ليواجه حشداً من المخصيين الذين أصابهم الهلع. وبينما كان هؤلاء يطلقون الأصوات الحادة ويعدون بسرعة، ظهر أعلى السلم شكل في قميص نوم زهري، فخيَّمَ الصمت المطبق.

Twitter: @alqareah

وقف السلطان بلا حراك ورفع سيفاً فوق رأسه، بينما تشبثت به محظيته المفضلة ونشجتْ برعب. اقترب منه الوزير بحذرٍ وقدَّمَ له المرسوم ليقرأه.

«إنها القسمة»، تنهد السلطان ثم دفع بالمرسوم بعيداً.

وفي اللحظة نفسها ركضت أم المحجبات بشعرٍ أشعث كالقيثارة أسفل الدرج، وقذفت بنفسها على الوزير ومزقت وجهه بأظافرها وطرحته أرضاً برفسة في معدته إلى أن فرَّقَ المخصيون بينهما.

Twitter: @alqareah

59

رافق الحرس عبد العزيز إلى الباب العالي واحتجزوه وحده في الحجرة التي قُتِلَ فيها عمه سليم الثالث بطريقة وحشية.

كان الليل جحيماً، وطاردت أرواح السلاطين السابقين عبد العزيز حتى الفجر.

وفي اليوم الثاني نُقِلَ إلى جناح في قصر سيرجان وقد رافقته أم المحجبات ومحظيته المفضلة التي كانت حاملاً.

طاف عبد العزيز في حدائق المنغولية التي زرعها بنفسه، ثم أمره جندي بالدخول. فزادت المهانة من محنته وبقي مستيقظاً لخمسة أيامٍ وليالٍ.

وفي الثالث من حزيران، جلس عبد العزيز مع والدته ليشاهدا المراكب الكبيرة تعبر البوسفور. وفكرَ السلطان بجميع السفن التي طافت خلال المضيق القديم لثمانية آلاف عام وبجميع الأباطرة الذين حكموا المدينة.

وقف عبد العزيز ونظر إلى صورته في المرآة، فشعر بالخوف من هيئته.

قال لوالدته: «أحتاج إلى زوجٍ من المقصات لتشذيب لحيتي»، ثم طلب منها البقاء وحيداً.

Twitter: @alqareah

وبعد ساعة، ارتفع صراخ محظيته المفضلة من الغرفة المجاورة التي رأت من خلال النافذة رأس السلطان يسقط إلى الأمام. حاولوا كسر الباب، ولكن بعد فوات الأوان. فقد سقط جسد السلطان المهيب على الأرض والدم يتقاطر من رسغيه والمقص المميت يقبع إلى جانبه.

تمَّ استدعاء التسعة عشر طبيباً الأكثر شهرة في المدينة لتحديد سبب وفاة السلطان، وقد أكد هؤلاء أن الانتحار هو سبب الموت.

لم يُقِر الجميع بهذا السبب، فقد سَرَتْ شائعات بأن السلطان قد قُتِلَ.

سأل الطبيب الانكليزي، الدكتور ميليغان، الذي سهر على صحة اللورد بايرون في ميسولونجي، سألَ أم المحجبات فيما إذا كانت بحاجة إلى رعاية طبية.

أجابته قائلة: «لستُ بحاجة إلى طبيب بل إلى جلاد، لقد قتلتُ ولدي، فأنا من أعطته المقص».

وخلال بضعة أيام، قضت محظية السلطان نحبها في ولادة مبكرة.

ثم اختفى الطفل.

Twitter: @alqareah

60

جلس قاسم بيه والدمية في السرير جنباً إلى جنب في كوخهما الصغير. وتاق كلاهما إلى الحلم الثنائي، لكن النوم جافاهما وفرّق بينهما. وفي ظلمات إحباطه، كان قاسم بيه يحلم حلماً لم تستطع الدمية دخوله أو تعطيله. حَلمَ هذا الأخير أن أغصان جار الماء(*) والصفصاف والبتولا(**) تنتشر في أرضهما وقد غطتها جبال شاهقة من الفحم وحلمَ أيضاً بأن السماء أصبحت سوداء كالبارود.

راقبته الدمية وهو ينفصل عن حلمه، وهربت إلى حلمها الخاص الذي رأت فيه سريرهما يحترق.

«كازيمير»، نادت الدمية اسم زوجها السري، «كازيمير، استيقظ ياحبيبي».

أحاط بهما لهب النار. فلكي يفسح الدائنون المجال أمام زراعة محاصيل أخرى، أضرموا النار في كروم العنب المقطوعة الأعناق والتي اعتنى بها قاسم بيه والدمية بمحبة خلال فصول عدة.

لم يعد قاسم بيه رجلاً ثرياً، وكانت الدمية تنتظر مولوداً.

(*) جار الماء: شجر حرجي يألف الماء. (المورد).

(**) البتولا: شجر القضبان. (المورد).

Twitter: @alqareah

61

سافر قاسم بيه في الليل والنهار على صهوة جواده من المنحدرات الصخرية الشاهقة والحادة في جبال بابونا إلى مدينة سكوبيه المسوَّرة.

سأل قاسم بيه عن مكتبة خزر التي يُشاع أن فيها كتاباً هو بمثابة المفتاح لجميع الكتب، وهو كتاب تُنقش حياة المرء بأكملها عليه. واستمر بالبحث لعدة أيام.

وأخيراً، غادرُ قاسم بيه المكتبة بعد أيام وقد تصلبت أوصاله من الجلوس وتعبت عيناه التي أظهرتْ وميضاً غريباً من الرضى، فقد وجد كتاب القدر الذي يدعى «البارود».

ثم سمع قاسم بيه لحناً موسيقياً قادماً من «مقهى الأغاني». كان رجلاً شاباً ينشر ألحانه كالطوقى(*) التركية ويغني عن عبد العزيز، عن قصوره العظيمة، وأسراب الطيور النادرة، ونسائه الفاتنات وكبريائه الأحمق وجنونه وانتحاره.

أكمل الموسيقي مغنياً المقطع السوداوي المتكرر بالسلم الموسيقي الثانوي:

(*) الطوقى: حلوى قاسية دبقة. (المورد).

Twitter: @alqareah

لكن ذلك لم يكن خطأه
كان ذلك قسمته
فجميعنا عبيد للقدر
الذي لا يهرب منه حتى الأباطرة
أيها السلطان العظيم، لترقد روحك بسلام

تأمل قاسم بيه مفكراً: من كان يتخيل ما سيأتي به القدر في ذلك الفجر السحري عندما التقى السلطان بالإمبراطورة في حدائق بيلربي، حيث كان الهواء يعبق برائحة المنغولية وحيث الندى والضباب والدبوس الزمردي؟

«لولا وجودهم هنا لسمعتْ آذاننا أبياتاً مختلفة عن مصير السلطان»، همس أحدهم لجاره بينما تحركت عيناه بصورة خاطفة نحو مؤخرة الغرفة حيث يكمن رجلان يرتديان الطربوش القرمزي، وهو شارة الشرطة السرية التي تتبع للسلطان الجديد.

Twitter: @alqareah

62

في اليوم التالي، باع قاسم بيه جواده ليشتري الكبريت والملح الصخري.

وعندما عاد إلى بيلربيه، راقبته الدمية وهو يمزج المادتين معاً ويُسخِّنهما في قِدْرٍ معدني. ثم أعملَ قاسم بيه البخار في غرفة أمطرت فيها زهور الكبريت كالكسفة الثلجية(*). عبقَ الهواء برائحة الكبريت وانبعثت الرائحة من خلال رياح من دخان ثقيل انتشر لمسافة أميال.

رأى البعض أن الرائحة شبيهة بالحرب بينما اعتقد قاسم بيه بأن الرائحة تشبه الذهب.

وفي تلك الليلة، استلقى قاسم بيه في السرير بجانب الدمية وصلى من أجل الحرب. ثم كرر الصلاة نفسها لأسابيع وأسابيع. أما الدمية فقد استلقت بجانبه وقد جافاها النوم وأنهكها البكاء ولم تستطع الخلود إلى الراحة.

استمر قاسم بيه باستعمال الحديد لبناء الاسطوانات التي طوَّقها بالآجر. وتابع لعدة أشهرٍ تسخينَ وتبريدَ البارود إلى أن أصبح ناعماً لدرجة أنه صار ينساب من بين الأصابع كالدقيق.

(*) الكسفة الثلجية: كتلة رقيقة من ثلج متساقط (المورد).

Twitter: @alqareah

ثم هرع قاسم بيه إلى مركز القرية حيث حشى المدفع التذكاري بالبارود وأطلقه نحو الهواء. تردد الصدى في الجبال وركض القرويون إلى منازلهم وهم يعتقدون بأن الحرب قد بدأت.

تدحرج قاسم بيه في ركام الحجارة وقهقه ضاحكاً: «لقد تمكنت منها».

وفي ذلك الربيع هاجم الصرب الألبان وحارب الكرواتيون المقدونيين كما هاجم البلغاريون اليونانيين كما لو أنهم سمعوا صلوات قاسم بيه.

وفي كل نزاع، ازداد عدد اسطوانات قاسم بيه المحترقة وازداد معها عدد مستخدميه كما التهمت الحرب بارودة. أما الأخشاب التي انبعثت منها في السابق رائحة البخور والزيزفون والأوكاليتوس(*)، فقد صارت تطلق روائح الكبريت العفنة والنتنة. كما تشكلت مظلة دائمة السواد فوق الأشجار العارية التي اندفعت أغصانها نحو الأعلى تلامس السماء كما لو كانت تصلي.

(*) أوكاليتوس: شجر يستعمل ورقه وزهره طبياً. (المورد).

Twitter: @alqareah

63

استعاد قاسم بيه في فترة وجيزة أراضيه التي اشتراها مجدداً بالإضافة إلى آلاف الهكتارات المحيطة بها. كما استعاد جواده وسلالات نادرة أخرى ليملأ بها اسطبله. وابتاع عربة رائعة للدمية، واشترى لها أيضاً الفساتين والمجوهرات والكتب والمجلدات. ولكن ذلك كله لم يُهدِّئ من روعها.

قالت الدمية لكازيمير: «أنت تصنع غباراً مدمراً».

«الخمر أم البارود، ما الفرق بينها، أليس كلاهما مسكراً؟».

«أحدهما الحياة والآخر هو الموت».

«ربما هما الشئ ذاته».

يتعلم المرء كيف يتجاهل الأصوات الثابتة التي تبعث على الإزعاج. تعلَّم قاسم بيه والدمية ألّا يتنشّقا رائحة الهواء، كما تعلما مجدداً كيف يدخلان في حلم الآخر حيث يكون كل شيء مثالياً. أحبك.

أنجب الزوجان سبعة أطفال الواحد تلو الآخر، وكان لكل منهم عين زرقاء وأخرى صفراء.

بنى قاسم بيه قصراً حجرياً ذا أبراجٍ صغيرة عالياً في الجبال حيث

Twitter: @alqareah

الهواء النقي. كان المنزل نسخة مطابقة لمستودع الذكريات، القصر الذي كان منزله في شاتونوف دو باب، حيث عاش حياة شخص آخر.

وبدلاً من العنب، أصبح شعار العائلة الجديدة هو المدفع والدخان.

لم يكن قاسم بيه وحده من اغتنى بسبب البارود، فقد تبعه مُلّاك الأراضي المجاورة وسرعان ما انتشرت القصور والمنازل الحجرية في كل مكان. وهكذا، أصبحت بيلربيه تشبه مقاطعة فرنسية باستثناء المسجد الذي وهبه قاسم بيه للبلدة، وهو صرحٌ من اللون الأزرق الداكن بهلال مُذهَّب وزهر الزنبق(*) حيث كان يُصلّي كل يوم.

(*) زهر الزنبق: شعار الملكية في فرنسا. (المنهل).

Twitter: @alqareah

64

أُضرمت النيران في قصر تويلري خلال حادثةِ شغبٍ أخرى عام 1871 ثم هُجِرَ القصر، وتُرِكَ ليتحطم كما لو أن لعنةً (أوزيماندية) قد حلت بجميع حكامه.

«لا يوجد أي حجر صغير مسود هنا إلّا ويعني لي إنجيلاً من الديمقراطية»، قال أوسكار وايلد ضاحكاً.

سُلبَ القصر وتفحَّمَ وأُلحِقَ به العار لعقد من الزمن، قبل أن يُهدم وتُبنى مكانه حديقة عامة. كما بِيعت بعضِ أنقاضه في المزاد العلني.

وكان من بين المشترين رجل يعتمر قلنسوة سوداء ضيقة ويرتدي معطفاً من الفرو. لقد صمم في السابق ثياب الإمبراطورة وابتكر العطور لها. طاف السيد ورث في الأنقاض وجمع قطعاً صغيرة مَثَّلَتْ كل منها لحظة خاصة أو حكاية أو تاريخاً.

ومن القطع التي تم استردادها، استطاع السيد ورث تكوين حديقة الجنون التي تضم نوافذ غرفة نوم أوجيني التي نسخَتْها عن تلك الموجودة في قصر بيليربي، والتي نظرتْ من خلالها إلى البوسفور والباب العالي والحب.

Twitter: @alqareah

65

عشية يوم رأس السنة عام 1880، رسا زورق بخاري في مصب ريو غراند. أفرغت فرناندا، ابنة فرديناند دو ليسيبس أول مجرفة في Champagebox. وبدأ مشروع قناة بنما.

وصلت أول مجموعة من المهندسين الفرنسيين في الشركة العالمية إلى كولون.

وتبعَ ذلك جهود حثيثة وأمطار جارفة ورطوبة جائرة، كما حصدت الأمراض القاتلة العديد من الأرواح.

لم يكن مشروع قناة بنما يبشر بالنجاح كما كان حال مشروع قناة السويس. فحفْرُ البرزخ لم ينجح إلّا في إنشاء نوعٍ مختلفٍ من الأنهار، وهو نهر النِّزاعات. وفي عام 1889، تسببت سوء الادارة المالية واختلال الأسهم والدعاية السلبية في إيقاف العمل.

عاد ليسيبس إلى فرنسا وقد امتلأ قلبه بالشك. فخلال جميع مغامراته، لم يعثر على الحب ولا على ما كان يعتقد بأنه قدره الحقيقي، بل شعر بأنه كان مجرد أداة.

في نهاية المطاف، خذلته رؤيته الملحمية.

Twitter: @alqareah

66

أقام السيد ورث احتفالاً بحديقة الجنون.

وفي ازدحام الحفلة، لاحظ فرديناند دو ليسيبس شعراً أحمرَ لا يمكن لأحد أن يخطئه. صارت الآن أكبر عمراً وقد تقاعدت من مهنتها، ولكنها ضمنت لنفسها ثروة كبيرة تضمن لها العيش بأسلوب أنيق بقية حياتها.

أعطاها فرديناند دو ليسيبس الرسالة التي مازال يحتفظ بها في جيب سترته.

احتست الشاي بشفتيها الصغيرتين الشهوانيتين بينما كانت تقرأ. ثم شاهدا معاً سقوط أوراق الخريف على حديقة الجنون لتشكل غطاء فوق بقايا قصر التويلري.

ثم سألته: «ما هو الأمل، مسيو دو ليسيبس؟».

«الأمل هو الألم المؤجل يا عزيزتي».

«إذاً، أينبغي على المرء أن يتوقف عن الأمل؟».

أجابها ليسيبس: «كان الشرق أملنا الكبير ولكن الأوان قد فات. كما أنني رجل مسن والغرب يتحرك بسرعة قصوى. أعتقد أنني سأقوم برحلة أخيرة إلى الشرق. أتَوَدِّين مرافقتي؟».

Twitter: @alqareah

67

تَبِعتْ عشيقة ليسيبس الجديدة هذا الأخير إلى الشرق. كانت المحظية نفسها ذات الشعر الأحمر البهي والشفتين الشهوانيتين، التي عاشت ذات مرة فوق قناطر القصر الملكي.

وكانت أول من رأى من بُعدٍ أبراج القصر الصغيرة الذي أحاطت به منازل المزارعين. وقد أثار اهتمام المسافرين غرابة وجود قرية فرنسية يتوسطها جامع في هذه البرية المقدونية.

بعث ليسيبس برسول إلى صاحب العزبة وأرسل معه بطاقة الزيارة الخاصة به وصندوقاً من الخمر الفرنسي الممتاز.

قبِلَ صاحب العزبة الهدايا ودعا المسافرين لقضاء الليلة في منزله ليصبحوا ضيوفه.

Twitter: @alqareah

68

لم يكن القصر فرنسياً على الاطلاق من الداخل.

فقد وجد المسافرون أنفسهم في محيط من الألوان المشرقة والتراكوتا(*) والآجر والسجاجيد البدوية التي لا تُقدَّر بثمن، كما وجدوا نوافير متدفقة وعصافير مغرِّدة. وكان المكان يعبق برائحة الزهور العذبة والتوابل. أما الأرائك فمغطاة بالقماش العثماني الفاخر وتتدلى شرابات من منتصف الدائرية منها. ويتدفق الضوء من خلال المِنْوَر(**) كما لمعَ الغبار ببريقٍ ذهبي.

قدِمَ قاسم بيه للترحيب بضيوفه وكانَ يشبه الساحر وهو يعتمر عمامة على رأسه ويضع خنجراً بمجوهرات على جانبه.

أثارت هذه المصادفة الأجواء عندما التقتْ عينا الرجلين الذين لم يلتقيا مذ كانا معاً في كامبين، أي في الليلة التي أُقِيمتْ فيها المأدبة، عندما قادت الإمبراطورة أوجيني كازيمير دو شاتونوف إلى قَدَره.

ووقفت إلى جانب ليسيبس المرأة التي كانت عشيقة كازيمير ذات يوم.

(*) التراكوتا: الطين النضيح. (المورد).

(**) المنور: كوة في سقف بيت. (المورد).

Twitter: @alqareah

«كيف صرتَ ذلك كله»، سأل دوليسيبس.

«إنها هشاشة العاطفة البشرية كما هو حالنا جميعنا».

«أعتقد أن لكل منا نصيباً في ذلك».

أعدَّ الطهاةُ في المطبخ الأطباق الشهية الخاصة بالمنطقة من الخضار التي زرعتها الدمية في حديقةٍ بعيدةٍ عن الهواء الكبريتي، وكان موسم الصيد والقطر سخياً، فقد خرجت الكستناء من قشرتها الخارجية، لكن كروم العنب ظلَّتْ عقيمة.

فتح قاسم بيه زجاجة من الخمر من الصندوق الذي أهداه إياه دو ليسيبس، ثم تنشق الفلّين وسكبَ قليلاً منه في كأسٍ وحرَّكه في فمه وتنشق رائحته ثم احتسى ببطء جرعة طويلة في الجزء الخلفي من حنجرته وابتلعها. فتوهجت عيناه وأطلق صوتاً يوحي برضى كبير لا يقدر عليه إلّا رجل فرنسي.

تعرَّفَ قاسم بيه في الحال على الطعم المميز والفريد لشاتونوف دو باب. قرأ على اللصاقة كلمة: مستودع الذكريات. المالكون: أندريه وأنطوان وألفونس دو شاتونوف.

تذكرت العشيقة جلوسها بالهيئة نفسها بين الرجلين نفسيهما في كومبيين قبل رحيلهما إلى السويس ليتحد كل منهما مع شرْقه. ثم طلبت كأساً آخر من الخمر.

«الحب هو الاسم الذي نطلقه على الأحزان لتعزية المعذبين، أتذكر ذلك؟»، سألت العشيقة قاسم بيه. «نحن نتعذب لأننا إما نشتهي ما لا نملكه أو نملك ما لم نعد نشتهي».

Twitter: @alqareah

«أذكر ذلك، ولكنك لا تتعذبين، أتمنى أن أكون محقاً في ذلك يا سيدتي».

«لا، لقد حملت نفسي على القبول بالانعزال الأبدي الذي دفنت قلبي فيه. لا بدَّ أنه قدري يا كازيمير».

في تلك اللحظة، رفعت الدمية نقابها فالتقتْ عينا المرأتين. كان للزوجة عين صفراء وأخرى زرقاء، كانت هي ذات المرأة في الصورة المنمنمة التي اشتراها كازيمير من متجر أورينتيلا بعد ظهر أحد أيام الخريف في القصر الملكي. إنه الوجه نفسه الذي ألهمه بأن يحبها بطريقة لم تنسها في تلك الليلة، والوجه الذي أغراه بالذهاب إلى قارَّةٍ أخرى، والذي جعله يلغي هويته، إنه وجه لعبة.

سألت العشيقة حبيبها السابق: «ما الذي يحدث عندما نمتلك ما كنا نشتهي؟».

«يقرّبنا ذلك من قَدَرِنا، فيصبح المرء إنساناً».

«وإذا لم نستطع؟».

«عندها سننتمي إلى عالم الواقع».

«وما هو الحل الأمثل؟».

«هذا يتوقف على قَدَر المرء».

«أتعني أن القدر والحب هما شيء واحد؟».

تحدثت الدمية للمرة الأولى في تلك اللحظة: «ليسا الشيء ذاته يا سيدتي، فأحدهما يقود إلى الآخر. وهو ليس ما نتوقعه، ولكن البحث عنه يبقينا مزدهرين وإلّا فسنفنى».

Twitter: @alqareah

كانت عيناها الغريبتان تنومان مغناطيسياً ولبقية السهرة، سمح الضيوف للدمية بأن تنقلهم إلى عالم خيالها واستمعوا إلى صوتها الرّنّان. أما لكنتها الفرنسية المشوبة بلهجة المستعمرات فقد أثارت تباعاً الابتسامات والدموع.

Twitter: @alqareah

69

رحل الضيوف في اليوم التالي.

أخبر ليسيبس قاسم بيه بإمكانية عودته معهم إلى فرنسا إن رغب بذلك، فلديهم تصريح ديبلوماسي يسمح لهم بإخفاء هويته وتهريبه خارج هذه الأرض الغريبة.

ضحك كازيمير: «إن تسلسل الأحداث الذي لا مهرب منه قد قادني إلى هذه المرحلة. لست أنا من سبب حدوث هذه الأحداث يا فرديناند. ليس من الضروري على المرء العودة إلى الماضي ليبحث عن المستقبل طالما أنه قد التقى قدره. أنا رجل محظوظ، فقد وجدت قدري ووجدني هذا الأخير».

حدَّقَ قاسم بيه في الدمية التي كانت تجلس قرب النبع وهي مُحاطة بأطفالها. كانوا جميعهم يستمعون إلى قصصها مُركِّزين وحالمين، وكان لهم جميعهم عين صفراء وأخرى زرقاء.

ومن البعيد، ارتفع الدخان في الجبال وسبب هدير المدافع اهتزازاً في الأرض.

انطلق دخان البارود إلى الهواء.

Twitter: @alqareah

قيد الطباعة للكاتبة

«عالم الحريم خلف الحجاب»

كتابٌ مُوثّق بالصورِ واللوحاتِ يتناول الحياة بشكل عام وعالم المرأة بشكل خاص في الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى انهيارها بعد الحرب العالمية الأولى.
ومن أهم العناوين في الكتاب:

- الحرملك الكبير: تعدد الزوجات، أسواق العبيد، حرملك السراي، الحصول على العبيد، تدريب الجواري، السلطانات، الخصيان، السلالة الحاكمة، القفص الذهبي، الموت، عالم الحدود القصوى. الحياة اليومية في حرملك السلطان: أسوار الحرملك، الحدائق، الألعاب، الأحواض، القصص والأحاجي، الشعر، الصلاة، أسرار الزهور والطيور، الأفيون، الرقص والغناء، مسرح الظل، التسوق، النزهات، الزيارات، المهرجانات والأيام الخاصة، فك السحر. - الملابس والأزياء. - الحمامات. - الطعام. - زواج السلاطين، نساء الحرملك والسياسة، موكب الزوجة الشرعية، السلطانات الأميرات، تكرار زواج السلطانات، الوضع والولادة، موت السلطانات..... - أصول الخصيان، أنواع الخصيان، تجارة الخصيان، خصيان الصين، تأثيرات الخصي، الرغبة الجنسية والخصي، زواج الخصيان، عودة الأعضاء التناسلية، كبير الخصي الأسود...

- حياة الحرملك في المدينة: - الحرملك العادي: الرومانس، الهدايا، ليالي الحناء، الزفاف، علاقات الزوج - الزوجة، تعدد الزوجات، العلاقات بين الزوجات، الخرافات والرُقى، الجواري، المجوهرات، أماكن السكن، نساء الصدفة، الموت.

- الغرب يلتقي الشرق: - الحلم المشرقي: ألف ليلة وليلة، رياح الشرق، الليدي ماري مونتاغو، رحلة إلى المشرق، جون فريدريك لويس، الرومانسيات، جان ليون جيروم، أماديو كونت برزيوزي، الإمبراطورة إيوجين، بيير لوتي، تحرير الشرق، الصورة الأخيرة. - الناجون (الباقون).

- استشراقية القرن العشرين، الأفلام، الحرملك هذه الأيام، كرونولوجيا.

Twitter: @alqareah

إصدارات سابقة

علي ونينو (رواية)	تأليف: قربان سعيد
مايا (رواية)	تأليف: جوستين غاردر
الجنس ومنابع الموت	تأليف: وليم ر. كلارك
الجنس وطبيعة الأشياء	تأليف: ن. ج. بيريل
الجنس في أديان العالم	تأليف: جفري بارندر
قوّة الأسطورة	تأليف: جوزيف كامبل
الأساطير والأحلام والدين	تحرير: جوزيف كامبل
البطل بألف وجه	تأليف: جوزيف كامبل
أمي مرآتي	تأليف: نانسي فرايدي
جسر بنات يعقوب	تأليف: حسن حميد
قلق الكيان الصهيوني	تأليف: أيمن البهلول
هرمس مثلث العظمة	تأليف: لويس مينارد
شخصية المولود البكر	تأليف: كيفين ليمان
نيتشة مكافحاً ضدّ عصره	تأليف: رودولف شتاينر
مفهوم العدل في الإسلام	تأليف: د. مجيد خدّوري
أصحاب الجلالة ـ الأهرامات	تأليف: ف. زامروفسكي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

قصر الدموع

إنها قصة حب رائعة، فالرجل يحلم بامرأة تحلم به بدورها. تذكرني هذه الرواية بقصة «حرير» التي كتبها آليساندرو باريكو كما تذكرني بألف ليلة وليلة. ولكن لـ «أليف كروتييه» صوتاً داخلياً، هو صوت رقيق وشاعري كنغمات الموسيقى في حديقة تركية.

ايزابيل آللندي

هناك قصة واحدة محظورة من الحكايات التي روتها شهرزاد: عاطفة شهوانية مثيرة بين امرأة شرقية ورجل غربي، وهذا بالضبط ما أنجزته أليف كروتييه. ففي قصر الدموع، نجد أنفسنا وقد علقنا في شرك موقف العاشقين المستحيل كما يتوقع المرء. لكن ذلك كله صُنِعَ بفضل المهارة الكبيرة للقاصّة التي استخدمت خيالها السينمائي لإثارة شهواتنا الحسية ولتجعلنا نستنشق الأزهار ونتذوق الخمور أو نحدق ببساطة في لوحات الغروب المنممة والملونة.

فاطمة المرنيسي

تدور الأحداث الغريبة والساحرة في رواية «أليف كروتييه» ضمن فسحةٍ رائعةٍ تتأرجح بين الرواية والتاريخ وتغري القارئ بالولوج مباشرة في هذه الفسحة.

دايان جونسون

دار الكلمة ـ سورية ـ دمشق
هاتف ـ فاكس: 2126326

دار السوسن ـ سورية ـ دمشق
هاتف: 6619334 ص.ب: 9063